توفيق الحكيم

عودة الروح

٢

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072538869

توفيق الحكيم

Tawfiq al-Hakim

عودة الروح

٢

'Awdat al-rūh

« انهض . انهض يا أوزوريس ! »
« أنا ولدك حوريس . . . »
« جئت أعيد إليك الحياة . . . »
« لم يزل لك قلبك الحقيقى »
« قلبك الماضى . . . »
كتاب الموتى

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

الفصل الأول

ركب محسن القطار التالى . وما كاد يستقر فى مقعده بركن « الديوان » قرب النافذة حتى انعزل عن بقية المسافرين وانطلق إلى نفسه وخيالاته وتذكاراته وسنيه وموقف الأمس . . . الخ الخ . وذهب عنه صخب المحطة وقلق الانتظار وشغل السفر واستعداداته وتمهيداته. وها هوذا الآن أمام الواقع وقد ابتعد به القطار عن مصر المحبوبة . وقد ترك حنفى افندى على الرصيف يجرى خلف القطار ويشير إليه بعلامات الوداع ويصيح فى سذاجة مؤثرة « مع السلامة يا محسن ! »

هذا «الرئيس» حنفى الذى كان محسن ساخطاً عليه منذ قليل . ما أطيبه نفساً ! لقد حمل له « الطرد » والحقيبة حتى أدخلهما عربة الدرجة الثانية وهو يتصبب عرقاً . أهو فى حقيقة ! أغادر مصر حقاً بهذه السرعة . . وأعمامه الرفاق « الشعب » وحنفى « الرئيس الشرف » . . أسيبيت الليلة فى بلد آخر وفى سرير آخر ! تأثر محسن قليلا واكتأب ولم يرفه عنه إلا تذكره أن سفره لمدة قصيرة ... وأنه سيحظى بخطاب سنيه . . ذلك الخطاب الذى ينتظره من الآن ولم يبرح بعد ... والذى سيكون أثمن ما يملك فى الحياة .

2271
.255
.313
v.2

ثم ... شيء آخر سيعزيه عن مصر : رؤية والدته العزيزة ووالده ...

التفت محسن بعدئذ إلى من معه من المسافرين فإذا هم عديدون ما بين معمم ومطربش . وقد امتلأ بهم « الديوان » حتى لم يبق محل خال . وكانوا إلى تلك الساعة ساكتين . غير أنهم كانوا يترامقون كأنما هم لا يطيقون الصمت والعزلة ويودون لو يهم أحدهم بالكلام .

ولم يلبثوا أن أطل عليهم رجل ضخم الجسم يلبس قفطاناً من الجوخ ويحمل « صرة » وأخذ يتفرس فى وجوههم كأنما يسألهم محلا خالياً وكانوا قبل ذلك يرونه فى ممر العربة المستطيل يمشى جيئة وذهاباً بصرته باحثاً عن مقعد فتناظروا لحظة ثم أفسح أحدهم بجانبه شبرين حاشراً الباقين عن يمينه وعن يساره حشراً صارماً وقال للرجل :

— تفضل يا حضرة كلنا مسلمين نساع بعضنا ...

فدخل الرجل بصرته وجلس وعندئذ مال افندى من «ركاب الديوان» على جاره وحادثه بصوت بدأ خافتاً خاصاً وانتهى بعد لحظة جهوريا علنياً كأنما يريد به إشراك الباقين فى الاصغاء إلى ما يقول . وأخذ الباقون حقيقة يحولون الأنظار إليه فى لذة وانتباه كأنما هم ينصتون إلى خطيب فى مسجد أو واعظ فى كنيسة .

وشجع المتكلم إقبال الحاضرين فاندفع يتسلسل من موضوع إلى موضوع. وكان قد استهل كلامه بمناسبة إفساح المحل للراكب الجديد ، فذكر فى إعجاب عواطف الارتباط والتضامن القلبى بين أهل مصر وقال لو أن هذا

حدث فى أوروبا لما تحرك أحد من المسافرين ولو كانت تجمعه والقادم صلة معرفة أو صداقة ... فهو لن ينقص من راحته لأجل أحد مهما يكن . ثم أردف قائلا على ذكر أوروبا إنه كان مرة راكباً قطاراً فى إحدى بلدانها ..

وهنا قاطعه أحد الركاب المعممين فى إكبار ساذج :

— حضرتك رحت بلاد بره . . ؟

فأجاب الأفندى بابتسام وتواضع :

— رحت بلاد النمسا و بلاد الانجليز وفرنسا . لأن كان لى أشغال تجارية.

وعاد الأفندى إلى موضوعه وقال إنه كان مرة راكباً القطار فى أوروبا وقضى فيه يوماً وليلة دون أن ينبس ببنت شفة لا هو ولا أحد من جيرانه المسافرين معه فى ذات الديوان كأنما كل فرد منهم ابن كوكب غير كوكب الأرض . لا أنهم كلهم بشر لهم قلب واحد وعواطف واحدة .

فتنحنح شيخ فى ركن الديوان ثم قال :

— بلاد ما فيهاش إسلام !

فلم يجب الأفندى وتغير لون وجهه قليلا ومد يده متشاغلا بنفض تراب السفر عن طربوشه فى شىء من الخجل والامتعاض . وعندئذ لاحظ أحد الركاب فى معصمه علامة الصليب فأيقن أن الشيخ قد فاه عن حسن قصد بكلمة أسىء فهمها . فتدخل مصلحاً بلطف :

— قصدك ياسى الشيخ بلاد ما فيهاش قلوب ... مش زى بلدنا سواء أقباط أو مسلمين كلنا إخوان . . .

ولاحظ أيضاً راكب آخر ذلك وكان من المتنورين فدخل فى الحديث وأخذ يستدرج الكلام بكياسة حتى وصل إلى إفهام الحاضرين أن كلمة « إسلام » الشائع استعمالها وترديدها فى مصر بين بعض الأوساط ليس لها فى الحقيقة أى صبغة دينية أو طائفية وإنما معناها ومغزاها عاطفة الرحمة وطيبة القلب وارتباط الأفئدة . عواطف يجدها الإنسان فى مصر ولا يجدها فى أوروبا حيث فشا فى نفوس الأفرنج سم النفعية وعم التكالب على المصالح الشخصية الفردية .

فتأمل الجميع من معمم ومطربش هذا الكلام وهذا التفسير وكأنه كشف لهم عن حقيقة كانت من قبل متوارية تحت لبس تلك الكلمة . واستحسنوا الكلام وأعجبوا به وختم الموضوع . وجاء واحد من الحاضرين يريد العودة بالأفندى المتكلم الأول إلى حديثه فقال له :

— بقا يا حضرة الأفندى فى بلاد برة يطيق الواحد مايكلمش جاره فى الوابور . . ؟

فدخل آخر قائلا :

— طيب دا الواحد منا ولا مؤاخذة يركب قطر السكة الضيقة نص ساعة ينزل عارف اللى راكبين كلهم ... وقال ثالث :

— وليه تروح بعيد . أدحنا لسه ما وصلناش بنها وحصلت لنا البركة بحضراتكم . . .

ثم أخذ يجيل بصره فيهم فرداً فرداً مبتسما كأنما يحييهم . وأخيراً وقع

نظره على الفتى محسن قابعاً منزوياً ولم يحس أحد وجوده . فوقفت عنده عيناه قليلا كأنما استغرب سكوته وقد تكلم الجميع . وكأنه أراد إخراجه من عزلته فانحنى عليه بأدب وقال له بلطف :

— مش كده والا إيه يا افندى يا صغير ؟

فالتفت إليه الفتى حائراً وتمتم فى حياء بضع كلمات ثم أدار وجهه إلى النافذة عائداً إلى سكوته وعزلته . فانصرف عنه محدثه ولم يلح . ونسب مارأى منه إلى صغره وخجله وأدبه أن يتكلم وسط من هم أكبر منه سناً .

وعاد الجميع إلى الكلام فى شتى الموضوعات حتى بلغوا محطة بنها . فأطل بعضهم من النافذة واشترى كعكا وبيضاً وبرتقالاً ويوسفاندى وفرش بعضهم منديله فى حجره وهو يعزم على الحاضرين :

— تفضلوا معانا . . .

فيجيبون :

— عشت . . . !

وتحرك القطار وغادر بنها . واشتغل الركاب برهة بالأكل إلا الأفندى المتكلم أولا عاد يقول ملاحظاً :

— بمناسبة « تفضلوا معانا » يبقى الراكب من دول فى أوروبا يطلع السجاير ويأكل ويشرب ولا يقول لجاره إنت فين ...

فاستغفر الحاضرون مستنكرين . وأخذ كل يبدى رأيه فى ذلك واستطرد الأفندى يقول مفاخراً :

— أهل مصر شعب أصيل عريق . فين ٨ آلاف سنة واحنا فى وادى النيل ! وكنا نعرف الزراعة والفلاحة ولنا قرى ومزارع وفلاحين وقت ما كانت أوروبا لسه ما وصلتش حتى لدرجة التوحش . . .

فقال الرجل ذو « الصرة » بعد أن بصق بصقة كبيرة من النافذة :

— صدقت . الرك على الأصل يا سيدنا الأفندى !

وهنا قال الأفندى المتنور كأن فكرة بدت له :

— لك حق يا أفندم . احنا من غير شك شعب اجتماعى بالفطرة . والسبب هو أننا شعب زراعى من قديم الأزل فى الوقت اللى كانت فيه الشعوب الأخرى تعيش عيشة الصيد والتوحش والانفراد كل قبيلة أو كل أسرة فى مكان . . لكن إحنا من قبل التاريخ كانت القرى وكان العمار ساكن وادى النيل . . الاجتماع فى دمنا والحياة الاجتماعية طبيعة نشأت فينا من أجيال . .

الفصل الثانى

وصل القطار أخيراً إلى محطة دمنهور فأطل محسن على الرصيف ووجد بانتظاره البربرى « السفرجى » والأسطى أحمد الحوذى . وما كادا يتعرفانه حتى تعلقا بمركبة القطار وصاحا :

— حمد الله على السلامة يابيه !

— شيل العفش يا بلال واسبق . . .

— والبيه الصغير ؟ . .

— أنا أوصل البيه الصغير . . . تفضل يا بيه !

وهكذا نزل الفتى وسار بين الخادمين كالمستغرب . وكلمة « بيه » ترن فى أذنه رنيناً غريباً . غير أنه لم يكره ذلك هذه المرة وشعر بشعور غريب من الخيلاء وود لو أن سنية كانت حاضرة لترى وتسمع . . .

وركب العربة ذات الجياد تتهادى به وسط هذه المدينة المتواضعة والناس على جانبى الطريق فى المقاهى والدكاكين ترمقه وكأنها تتساءل عن هذا الفتى الراكب عربة الوجيه المعروف . وبلغ المنزل وإذا والدته تنتظره بأعلى السلم فما رأته حتى فتحت ذراعيها وما رآها حتى اندفع إليها فى حركة غريزية

وإذا هما متعانقان . والأم تلمع فى عينها دموع التأثر والفرح . وكلما فرغت من عناقه عادت إليه .

وأخيراً أخذت تفحصه من رأسه إلى قدميه وتجسه وتلمس أعضاءه كأنما تتفقدها عضواً عضواً . وفى النهاية ابتسمت وقالت له :

— بسم الله ماشاء الله ! إنت سمنت يا محسن .

ثم أدخلته إلى الردهة وأجلسته بجانبها وطفقت تسأله عن مصر وعن عمته وأعمامه . . وعندئذ دخل أبوه فنهض محسن وهرع إليه يقبل يده ثم وقف حتى جلس أبوه فجلس . وحينئذ سأله أبوه :

— إيه يا محسن ؟ إزاى امتحان وسط السنة ؟

فتململ الفتى قليلا وقال :

— مفيش السنة دى امتحان وسط السنة . لغوه . .

فقال أبوه فى شىء من الدهش والأسف :

— لغوه ؟ إزاى ! مالهمش حق أبداً . .

وطفق بعدئذ يسأله عن الدروس وعن أساتذته وعن امتحان الكفاءة الذى سيتقدم إليه محسن هذا العام . إلى أن تدخلت والدته قائلة لزوجها منتهرة :

— يا باى عليك ! مش تصبر عليه لما ياخد نفسه ؟ أيوه أسأله الأول عن صحته وعن صحة أعمامه . إيه قلة الذوق بتاعتك دى ؟ !

ثم نظرت إلى حذاء زوجها وقالت :

— برده لابسها ؟ مش قلت لك اقلع جزمتك دى ؟ ما يلقش بمقامك أبداً تلبس جزمه زى دى . إنت عندك جزم كتير . ليه بقا تلبس دى ؟ انت مركزك مش صغير فى البلد . .

فأجابها الزوج وهو يخلعها :

— أنا نسيت . حاضر يا هانم ما تزعليش !

يا على . ! يا على .

فلبى نداءه بر برى آخر غير الذى رآه محسن بالمحطة . وكان لابساً قفطاناً أبيض ومتمنطقا بحزام أحمر . فأمره البك الكبير بإحضار حذاء آخر على عجل .

وجعل الفتى محسن عندئذ يجيل النظر فيما حوله من طنافس غالية ورياش فاخرة ونقل بصره فى أدب إلى والدته ونظر إلى ما عليها من ملابس ثمينة .

وكانت والدته فى تلك الأثناء تنظر اليه هى الأخرى . فما لبثت أن قالت :

— لبسك مش عاجبنى يا محسن .

فغمغم الفتى بكلمات مبهمة . واستطرت الأم تقول :

— انت ما طلعتش زى أبداً .

وهنا تنحنح أبوه وقال :

— ولا زى .

فالتفتت الزوجة إلى زوجها وقالت فى تهكم :

— من إمتى يا حضرة العمدة . الفلاح . انت تنكر انى أنا اللى مدنتك وعلمتك الأبهة . ؟

فأجاب زوجها متقهقراً :

— الله ! وانا قلت حاجه ؟ طبعاً انت يا هانم تركية بنت أتراك .

فسكتت قليلا ثم انصرفت عنه إلى محسن وقالت :

— صحيح شيء غريب . محسن ما طلعش زيى . . من صغره كان يبكى ويصرخ نهار مانبعت له العربية الملاكى على باب المدرسة . فاكر ؟

فقال أبوه وهو يشد جوار به الحريرية الغالية :

— فلاح ! تقولى له إيه . ؟

فأطرق محسن لدى سماعه هذه الكلمة . وقد أحس عاطفة كالازدراء لايدري ألنفسه أم لغيره .

***

مدت مائدة العشاء وجلس اليها محسن ووالدته ووالده . وجعل بلال البربرى وعلى البربرى وكلاهما بملابسه البيضاء وحزامه الأحمر كأنهما من برابرة فندق شبرد يتنقلان بالصحاف والأوانى ذات الألوان المتعددة والأطعمة اللذيذة . ومع ذلك كان محسن فاقد الشهية للأكل يتناول من كل لون لقمة كأنما يقضى واجباً عليه . ولاحظت والدته قلة أكله فسألته فى ذلك قائلة :

— مالك يامحسن؟ الأكل مش عاجبك ؟ عند أعمامك الأكل أحسن ؟

فكاد الفتى يضحك إذ ذكر قصعة الفول النابت وورك الأوزة الذى قذف به عبده من النافذة . ومع ذلك . ومع ذلك فقد كان هذا الفول النابت لذيذاً فى فمه . . . لذيذاً وهو يلتهمه وبجواره مبروك الخادم يرشف نصيبه وعيناه اللامعتان ترمقان الدخان المتصاعد وخياشيمه تستنشقه فى شهية قوية ثم حنفى « الرئيس الشرف » وباقى الجماعة وهم مجتمعون حول هذه القصعة كأنها كعبة . .

ما أسعد الجماعة ! وما أحسن تلك الحياة مع الشعب ! نعم لهذا كان يأكل . ولهذا سمن مع سوء الغذاء وقلة الألوان .

* * *

وجاء ميعاد النوم وقادوا محسن إلى حجرته الخاصة . حجرة جميلة غالية الفرش . وأغلق عليه الباب . وقد أوى كل إلى مخدعه فتأمل محسن ماحوله فاذا سرير واحد . وإذا هو وحده . بمفرده . وإذا الهدوء شامل . والسكون كأنه سكون الموت . فاكتأب لهذه الوحدة وأوحشه المكان . وحنّ إلى سريره بجوار أسرة أعمامه فى تلك الغرفة « العمومية » ذات الخمسة الأسرّة ينحشر فيها « الشعب » بأجمعه حشراً . واشتد به الحنين ولما يمض به ليلة . حتى أدرك أنه كان هناك فى نعيم . وان هناك انما هى الحياة . وما كانت أهنأها حياة . حياة الجماعة تلك . . . حتى فى متاعبها ولحظاتها الشقية . !

الفصل الثالث

استيقظ محسن فى اليوم التالى ضيق الصدر ضجر النفس وجعل يتنقل فى أرجاء المنزل الرحب ويتأمل مايقابله من أثاث أنيق ومقتنيات فاخرة تأمل غير المكترث إلا أنه ذكر سنيه فجأة فتغير شأنه وانتعش فيه شىء من الزهو فأقبل ينظر إلى ماحوله من جديد فى اهتمام . وجاءت والدته اليه ترفل فى ثوبها الجميل فنظر اليها محسن معجباً وود لو أن سنيه رأت والدته هذه . ومر أبوه فى بذلة غير بذلة الأمس وفى يده عصا ثمينة ثقيلة عليها نقوش ذهبية بديعة فذكر الفتى فى الحال كلمة والده بالأمس :

— فلاح ! تقولى له إيه !

فخجل قليلا من نفسه واستغرب كيف أنه ابن لهذين الوالدين ولا يكون مثلهما . ووطن نفسه على التشبه بهما من الآن . فهو ليس بعد صغيراً وعليه أن يفهم حقيقة مركزه . وارتاح لهذه الفكرة فراح يتقرب إلى والدته ويتمسح بها كأنما يطلب اليها أن تطلعه على أسرار حياة الأبهة هذه أو أن تفحمه أو تجعله يتذوق تلك الحياة . .

ولكن هذا كله كان وهماً : وما كاد اليوم الأول ينصرم حتى عاد

الملل يقتل محسن . وذهبت عنه الحماسة والنشوة وذهب الخيلاء . . وأحس تلك الحقيقة فى قرارة نفسه : إنه غريب بين أهله . وأن شيئاً لايستوضحه يفصل بينه وبين والديه . وإنه مهما صنع فلا بد من تلك الكلفة والغموض بينه وبينها . فليدعوانه فلاحا ماشاءا فهو لن يستطيع أن يعيش كما يريدان . إنه فى حاجة الى تلك الحرية وذلك الهواء الطلق الذى كان يستنشقه بين أعمامه السذج المتواضعين ومهما كان من أمر هذا المنزل بخدمه ونعمه فهو يغل نفسه باغلال ثقيلة لاطاقة له بها .

وانشرح صدره لهذه الخواطر فأمعن فيها بروح ثائرة لم يعهدها فيه من قبل . وكانت كلمة فلاح التى لفظها أبوه أمس مازالت تذل نفسه فثار فى سره على أبيه وجعل يستعرض فى ذهنه شخصية أبيه ونشأته . أليس هو فلاحا أيضاً قبل كل شيء . أو لم يكن فلاحا من ذوى الأطيان ولا يزال . ما الذى غيره ؟ أهى ملابسه وعصاه الثمينة وأحذيته وجواربه وخواتمه الماسية ! ! .

أليس هو التقليد . أليست هى والدته التركية الأصل التى أثرت فى أبيه باسم التمدن ؟ نعم ولكن بأى حق يزدرى الآن الفلاح . ألأن الفلاح فقير ؟ وهل الفقر عيب ؟

وهكذا ظل محسن يقلب فى رأسه افكاراً من هذا النوع وهو يتبرم بالمكان ويستوحش هذه الحياة ولا يتصور كيف يقيم كذلك عشرة أيام وهو المتبرم باليوم الأول . وحن إلى منزل أعمامه حنين السمكة إلى مائها .

وخطر له أن يتذرع بحجة للسفر والرجوع من حيث أتى . غير أنه ذكر خطاب سنيه الذى ينتظره فسكت وأذعن وذكره ذلك بوجوب الكتابة إلى أعمامه يخبرهم بوصوله فنهض لفوره إلى المكتب وأخذ يكتب لهم خطابا يصف فيه شوقه الصادق . ثم أفرد خطاباً خاصاً لعمته زنوبه يسلم عليها فيه ويرجو منها تبليغ سلامه إلى سنيه هانم بعبارات غاية فى الرقة وكأنه يتوقع أن تطلع سنيه على هذا الخطاب فكتبه كأنما يكتبه لها . .

* * *

لاحظت والدته سأمه فأشارت عليه بالنزهة فى العزبة بضعة أيام حيث الأرض الآن يكسوها البرسيم كالبساط الأخضر . فوافق محسن مبتهجاً . وأمرت والدته بالعربة فهيئت وأعد ما يلزم للاقامة ببيت العزبة .

وماجاء العصر حتى كان محسن ووالده ووالدته وبعض الخدم فى الطريق إلى « ... » . وهى تبعد عن مدينة دمنهور بمقدار « ... » . مابلغت العربة « الجسر » وجاوزت الجميزة الضخمة القائمة على مدخل « الجرن » حتى نبح كلب العزبة وظهر خلفه « الخولى » وشيخ العزبة وبعض أنفار « الوسيه » . وسكت الكلب إذ عرف القادمين . وأحاط « الخولى » والشيخ ومن معهما بالعربة يستقبلون ويخصون محسن بالترحيب قائلين وهم يساعدونه على النزول إلى الأرض :

— ياتلتميت ألف مرحباً بالبيه الصغير !

— العزبه نورت بجناب البيه الصغير !

وقال شيخ العزبة ولحيته البيضاء الوقورة تهتز إذ يتكلم :

— سلامات ياحضرة البيه ... سلامات ياحضرة البيه الصغير سلامات ياحضرة الست . سلامات . ! سلامات كده ! .

واقترب أحد « الأنفار » من محسن وقال له :

— مش فاكرنى ياجناب البيه ؟ أنا عبد المقصود اللى كنت توصينى أيام مدرسة دمنهور أحضر لك الركوبه يوم الجمعه ونطلع نصطاد السمك فى ترعة أبو دياب . مش فاكر ؟ بالأمارة كنت تركب الجحشه نص السكه وتنزل تقول لى اركب ياعبد المقصود انت كمان . أقول لك يابيه أنا مش تعبان . احنا فلاحين واخدين على المشى . تقوم تزعل وتقول لازم تركب انت كمان . مش فاكر يابيه ؟

فابتسم محسن وسكت .

وفى هذه الأثناء كان والد محسن ووالدته يحادثان الناظر والشيخ فى شئون الزراعة ويأمران وينهيان وناظر العزبة يجيب فى أدب :

— كل شىء تمام ياحضرة البيه . المصارف أجرينا تطهيرها والربع القبلى قصبناه للدرة . والبرسيم السنه جنابك شايفه ماشاء الله عليه . سنه خضرا بقدوم البيه الصغير !

فالتفت البك الكبير إلى شيخ العزبة وقال :

وأنت يا شيخ حسن ! إيه حكاية عرجاوى والغفرا البدو . ؟

— انتهت على خير ياحضرة البيه .

— أيوه . مش عايزين مشاكل بين البدو والفلاحين فى العز به .

— مفيش مشاكل يا بيه . صالحناهم على بعض بحضور وكيل العمدة وشيخ الغفر . والعز به هاديه . بدو وفلاحين صافيه لبن . .

ومشت الست نحو بيت العز بة فتبعها زوجها ومحسن والجميع .

وطفق الشيخ حسن يقول فى الطريق :

— شرفتوا العز به ! والله سلامات . .سلامات ياحضرة البيه ! سلامات يا حضرة الست . . . سلامات يابيه يا صغير . ! . سلامات كده . .

وضاق صدر الست فصاحت بالشيخ المسكين :

— دوشتنا بقا . . هى سيرة سلامات . ! انتم ليه كده لكاكين يا فلاحين . !

فامتعض الشيخ قليلا وخجل لكنه قال مبتسما :

— ربنا يطول لنا عمركم ! ما احنا ياحضرة الست فرحانين بكم . فتأثر محسن قليلا . ولكنه سار خلف والدته ساكتاً مطرقا . ووصل إلى علم الفلاحات قدوم أصحاب « الوسيه » فخضرن يزغردن . وتقدمت أجرأهن تريد أن تتناول يد الست تقبلها فانتهرتها الست قائلة بازدراء :

— بعيد . . بعيد ! حاسبى توسخى فستانى !

فأجابت الفلاحة فى حلم و بشر ضاحكة الوجه :

— يوه ! مش ستنا نبوس ايدها ! امال نبوس ايد مين ؟

فأشارت الست بيدها علامة الابتعاد . وتدخل الناظر ينفذ رغبة الست

فرفع ذراعه فى الفضاء مرهباً كأنما يرهب أوزاً أو دجاجا وقال :

— يلله يا وليه انت وهيه ! على داركم . على داركم . .

فتقهقر النسوة وتراجعن إلى الوراء نحو دورهن وهن مستمرات يزغردن ...

فاقترب محسن من والدته . وقال فى نبرة التأثر :

— ليه يانينه تطردهم ؟ حرام ؟ . .

فأجابت بجفاء وقلة اكتراث وهى تجتاز باب البيت :

— حرام إيه . . دول فلاحين !

الفصل الرابع

ما كاد محسن يستقر ساعة فى غرفته ببيت العزبة حتى كان وقت الغداء فمدت المائدة ووقف على رأسها الخادمان النوبيان كالمعتاد وجاءت الست يتبعها زوجها ومحسن . وما نظرت إلى طبق الخبز « البلدى » على المائدة حتى صاحت :

— الله ! فين العيش الفينو ؟

فغمغم أحد الخادمين :

— مفيش . . .

فزمجرت الست :

— نسيت تجيب عيش فينو معاك من دمنهور ؟

كويس قوى . . وأنا آكل ايه دلوقت ؟

— أروح يا ستى أجيب من دمنهور وآجى حالا .

فسكتت الست لحظة . ثم عادت فقالت بعدأن ألقت نظرة على الشمس المتوهجة فى الخارج :

— الدنيا حر عليك يابلال . قل لواحد فلاح يروح . . .

وهم بلال بالذهاب ولكنها استوقفته :

— إسمع يا بلال ! نادى لى الناظر الكلب . . .

وخرج الخادم وعاد بعد لحظة بالناظر فقالت له الست :

— إزاى عايز تو كلنا عيش من بتاع الفلاحين يا راجل يا مغفل !

فأجاب الناظر دهشاً مبغوتاً :

— دا عيش طازه يا ست . . خبيز النهارده الصبح ! وامراتى خبزاه بأيدها خصوصى علشان حضرتك . . .

فصاحت به :

— بلاش قرف ! أنا آكل عيش من ده ؟ ! امشى ابعت واحد فلاح حالا يروح يجيب لى عيش افرنجى من دمنهور .

— دلوقت ياست ؟ فى حر الأياله !

— أيوه ! دلوقت فى حر الأياله !

— حاضر ياست . بس . . .

— بس إيه . ؟

— بس جنابك تعرفى ان الفلاح من دول يشقى فى الغيط من الساعه ٥ صباحا وما يصدق تيجى ساعة الضهرية لأجل يرتمى تحت شجرة يستريح بعضشى . .

— ما شاء الله ! يستريح بعضشى ؟ الفلاح يستريح؟ من امتى العز ده !

— مش بنى آدم ياجناب الست .

— امشى بلاش دلع . قوم حالا واحد فلاح يجيب عيش من دمنهور والا وحياة أبويا الكرباج ينزل على عمتك دى . . . جنس فلاح .

فأطرق الناظر قليلا . والتفتت الست إلى زوجها البك كأنما تنتهره على سكوته واكتفائه بالمشاهدة فأسرع البك يوافق فى ربكة وعجلة قائلا :

— أيوه... امال ايه! ابعت واحد فلاح من اللى نايمين زى الجاموس فى الدار..

فرفع الناظر رأسه وقال :

— حاضر...

وأردفت الست :

— والا روح انت بنفسك إن كنت عايز تدلعهم ما انت زيهم . يعنى انت كنت ابن ترك . ؟ .

فقال الناظر فى أدب :

— حاضر...

ثم خرج يلبى هذا الأمر الصارم . ومحسن يتبعه بنظره مشفقا حتى غاب فخفض الفتى بصره وجعل يداعب أزرار سترته ، متجنبا النظر إلى والديه كأنه خجل من سلوكهما . .

* * *

صبر محسن حتى انتهى الغداء ، فترك والديه وانسل إلى الخارج حيث الحرية والفضاء والفلاحون السذج البسطاء كرماء النفس . فكان أول من صادف الشيخ حسن قاعداً على مصطبة المضيفة ، و بيده سبحة وهو باهت الوجه متغير الصوت يتوسل إلى عبد العاطى البدوى خفير العزبة الخصوصى ، وهذا يصيح فى وجهة بصوت مخيف :

— والله والله عرجاوى ما يخشها . . وشرف البدوى نطسه بالوش من هادى الباروده !

— مفيش لزوم للشوشرة ياعبد العاطى . البيه هنا . . اعمل معروف . .

— والله هادا الفلاح ما يبات فيها .

— مش حصل الصلح بينكم على يد وكيل العمدة ؟

— احنا بدو شرفا . مايمشى علينا كلام عمدة فلاحين . . .

قال هذا وترك الشيخ حسن وسار متعاليا وعلى شفته انفراجة ازدراء . ومر فى طريقه بمحسن وكان قد وقف عن كثب يرى و يسمع غير مريد قطع المحاورة بينهما . فلما دنا منه عبد العاطى ناداه وسأله عما قال للشيخ حسن منذ لحظة وعن السبب فى حقده على عرجاوى الفلاح . فأجابه الخفير البدوى فى صلف بأن هذا الفتى الفلاح عرجاوى يريد الزواج من أخته البدوية وأن أخته هامت بهذا الفلاح ولم يفلح فى إرجاعها عنه لا الضرب المبرح ولا النصح ولا المعايرة بنزولها عن محتدها البدوى إلى الاقتران بفلاح . وفى النهاية اتفقت مع عرجاوى على الهرب والزواج به على الرغم من إرادة أخيها عبد العاطى . فأقسم عبد العاطى أن لا تقع عينه على عرجاوى هذا حتى يقتله . وقد حاولوا الصلح بينهما . وحاولت الفتاة العربية استعطاف أخيها وساقت إليه من يغير رأيه فيها وفى زوجها الفلاح فلم ينفع كل ذلك . وأصر عبد العاطى على تنفيذ حكمه . هذا ما فهمه محسن من هذا البدوى . وعندئذ نظر إليه وسأله فى رفق :

— بقا البدوى أحسن من الفلاح يا عبد العاطى ؟

فأجاب الخفير وهو يحدق به مستغرباً جهله :

— كيف يابيه ! البدوى متل الفلاح ؟؟!

— إيه الفرق بين الاثنين ؟

— كيف يابيه كيف ؟ البدوى أصيل.

— والفلاح مش أصيل ؟

— الفلاح عبد بن عبد . أحنا بدو ما نرضى الضيم .

* * *

ترك محسن عبد العاطى وسار وحيداً يفكر فيما سمع منه وقد تذكر قول مدرس تاريخ مصر القديمة إن الفلاح المصرى الحاضر إن هو إلا ذلك الفلاح المصرى الغابر الذى كان يعيش ويحرث ويزرع نفس الأرض قبل أن تكون البدو بدواً . ولقد توالت العصور عليه وتوالت الأمم عليه لكنه لبعده عن المدن والحضر ولاعتصامه ببطون القرى نائياً عن مهب العواصف السياسية والاجتماعية فى العواصم حيث تقيم الأمم المغيره عادة وتختلط الأجناس . . . لم يستطع طول الزمن ولا تقلباته أن تغير من نفسه شيئاً . فهل هذا الفلاح من يصح اتهامه بأن لا أصل له ؟ ؟ وهو أصل الأصول . . ، ولكن العيب عيب الفلاح وحده لأنه يجهل أصله هذا بينما البدوى يتوارث ما يسميه أصلا أبا عن جد وقبيلة عن قبيلة . ثم أليس من دلائل الأصل العريق تلك الطيبة التى طبع عليها الفلاح وذلك الهدوء وحب السلام عنوان المدنية والاستقرار بينما هذا البدوى لا يزال على أخلاق

الوحشية وحب الحرب والثأر والدم بقايا الحياة الأولى الهمجية القلقة غير المستقرة التى أساسها الغزو والسلب ونهب القبيلة القبيلة . ولكن الفلاح يجهل أيضاً كيف يدافع عن نفسه فيقول إن طيبته وحبه للسلام إن هو إلا نتيجة أصله الزراعى العريق وما تطلبه حياة الزراعة من السلم والاطمئنان ونبذ الغزو والسلب . حياة مدنية اجتماعية . لا حياة وحشية برية جبلية . فهدوءه وسلامه كرم أصل لا عبودية ولا خسه عبد ابن عبد . . .

***

ذهب محسن بعدئذ إلي الشيخ حسن وجلس بجواره على المصطبة ونظر إليه قليلا و إلى لحيته البيضاء ثم قال له :

— ياعم الشيخ حسن ! البدوى أحسن والا الفلاح ؟

فالتفت إليه الشيخ ثم أجاب وهو يسبح بسبحته :

— البدو دول يا جناب البيه جماعة خطافة جرابيع . . . لا لهم دين ولا ملة . ولا يعرفوا رحمة ولا إسلام . .

— إزاى ؟

— الفلاح منا يبقى خيره عليهم . يكرمهم و يساعدهم ويخاويهم وهم يتكبروا عليه كأن دمهم دم واحنا دمنا ميه . روح الفلاح عندهم ما تسوى أكتر من حق عيار رش بقرش صاغ . أهو داك السنة فضل أبو متولى الجرف يحرت للراجل بسيس البدوى أرضه و يقصبها له و يبدرها له . أصل البدو لا تعرف تزرع ولا تقلع . ناس لا مؤاخذة ما يفلحوا إلا فى الضرب

والخطف . . وآخرة دى الخدمة والمروّة ان بسيس البدوى سلطوه ناس على أبو متولى ضربه فى الدره . .

— قتله ؟

— هم البدو دول لهم أمان ! دول وحوش يا جناب البيه . لو تشوف بس أكلهم فى العصيدة وهى تلهلب نار تقول دول مش بنى آدم .

وسكت قليل . ولبث محسن ينظر إليه مصغياً . وعاد الشيخ حسن إلى الكلام بعد لحظة قائلا لمحسن على ذكر أكل البدو إنه كان مدعوا ذات يوم فى فرح بدو فى الخلاء . وإنهم بعد أن أطلقوا النار فى الهواء من بنادقهم ولعبوا البرجاس بخيولهم وضعوا قصعة ملانة أرزاً أبيض ثم قالوا للمدعوين « تفضلوا . . » . وكان ذلك اليوم من أيام الخماسين العاصفة والرياح الصفراء برمالها وغبارها تسفى من كل جانب . فما يشعر المدعوون إلا والأرز الأبيض فى القصعة قد صار أصفر فى لون الكركم من الغبار . فامتنع هو فى أدب عن الأكل . طبعاً أيأكل تراباً ؟ وعندئذ تقدم البدو وقد شمروا عن سواعدهم وهجموا على القصعة غير عارفين الأرز من التراب وجعلوا يزدردون ازدراداً بأكفهم من ذلك الأرز والتراب كأنهم ضوار جياع . . .

فابتسم محسن وقال فى تحمس :

— الفلاح أحسن من البدوى . وأكرم من البدوى . وأطيب من البدوى . مش كده يا عم الشيخ حسن ؟

الفصل الخامس

انقضى يومان ولما يأت خطاب سنية المنتظر . فبدأ القلق يدب فى نفس محسن . وجعل يمضى أكثر يومه على المصطبة ينتظر مواعيد البريد ويستذكر سنية وما جرى له معها وآخر مرة رآها وتلك القبلة التى منحته إياها ودموعه تنهمل . . . ما ذكر هذا حتى اختلج قلبه وخيل إليه أن هذا كان حلماً وعجب كيف أنه بتلك السهولة حظى بتلك السعادة ولم يقل شيئاً ولم يفعل شيئاً . . أتراه كان غافلا . . ذاهلا . . أو أنه كان نائماً ؟ مرة أخرى مرت به السعادة فلم يعرفها فى حينها ولم يفطن إليها إلا بعد فواتها . إنها قبلته . . وما زال يحس وقع تلك القبلة على خده . . فاضطرب فؤاده ورفع يده بغير شعور منه إلى خده فمسه كأنما يتفقدها أو كأنما يستوثق من خلود هذا الطابع . غير مصدق أن القبلة طابع من الهواء تطير معه . لا . . إن هذه القبلة لها عنده أعظم معنى . إنها تحبه . وهو لم يدرك أيضاً فى حينه معنى الحب . نعم هى تحبه وإلا فما الذى حملها وهى الفتاة المصرية الخجول على بدئه بالتقبيل ولم يقبلها . . ثم أليست هى التى اقترحت على عمته زنوبة كتابة خطاب إليه ؟ إذن مم يخاف ؟ ولماذا يقلق ؟ لعل الذنب ذنب زنوبة

التى أبطأت فى أخبارها برسالة وصوله . فلينتظر قليلا . فلا محل للقلق والاستعجال . وأخلق به بدل القلق أن ينطلق إلى الحقول بصدر منشرح يستنشق الحب فى هذا الهواء النقى الطاهر ويراه فى كل ما يحيط به من مخلوقات بريئة طاهرة . .

وهكذا سرى عنه . وأطاع إيحاء نفسه فانطلق يجرى هنا وهناك فى الأرجاء الواسعة يهش للقبرة الطائرة وينصت إلى الماء الجارى تحت ظل الجميزة الضخمة . ويبدو له فيقفز إلى « النورج » الملقى فى ركن من الجرن أو إلى « الساقية » الدائرة فيتأمل الثورين يجرانها وقد وضعت على أعينهما حجب كيلا ترى سوى العمل .

غير أن كل هذا ما أثرفى نفسه مثلما أثر فيها منظر دور الفلاحين عند ما ذهب يجوس خلال حاراتهم الضيقة فى شىء من الحيطة والتلصص خشية إزعاجهم . وصادفه باب مفتوح فأطل برأسه داخله فلم يجد به أحداً فعلم أن أصحابه قد « سرحوا » فى الغيط .

فدخل متردداً وجعل ينظر إلى المكان فرآى رحبة صغيرة مغطى نصفها بسقف من حطب القطن والأذرة الجاف ثم قاعة صغيرة . وكان باب القاعة مفتوحاً كذلك فألقى محسن عينيه على ما بها فألفى منظراً لن ينساه . رآى أن تلك القاعة إنما هى قاعة النوم لأصحاب الدار إذ بها فرن وفوق الفرن حصير وأغطية . إلا أنه رآى كذلك فى ركن منها بقرة أمامها حمل برسيم وبين رجليها الخلفيتين عجل رضيع جميل يشب إلى ضرعها غير أن

ما أدهش محسن أنه شاهد بجانب هذا العجل الرضيع طفلا رضيعاً أيضاً لعله ابن أصحاب الدار وهو يزاحم العجل ويدافعه على ضرع البقرة . والبقرة ساكنة هادئة لا تمنع هذا ولا ذاك وكأنها لا تفضل أحدهما على الآخر . كأنما العجل والطفل كلاهما ولداها . . . ما أجمله منظراً ! وما أروع معناه !

ونظر محسن إلى العجل الرضيع فى طهارته وبراءته وهو يئن أنين الراضى القانع ثم نظر إلى الطفل الرضيع وهو يصيح فى طهارة وبراءة صيحة السرور والرضا فبدا له كأن الأثنين متفاهمان وكأن بينهما صلة وكأنهما لا يدركان قط ما بينهما من اختلاف . .

أعجب محسن بهذا المنظر وأحس إحساسات عميقة عظيمة . غير أن عقله لا يستطيع أن يزيد على مجرد الأحساس العميق شيئاً . والأحساس هو علم الملائكة . كما أن المنطق العقلى علم الآدميين . لذلك إذا أريد ترجمة ما شعر به محسن إلى لغة العقل والمنطق لظهر أنه كان يعجب فى نفسه لذلك الاتحاد بين مخلوقين مختلفين وصل بينهما الطهر والبراءة . لكن للأسف غداً يكبر الطفل وتكبر معه الآدمية وتتضاءل الملائكية . فيحل محل شعور الاتحاد العام بينه وبين مخلوقات الكون الأخرى شعور بمطامع ورغائب تجعله يحتقر ويزدرى كل ما هو غيره . . وتجعله يعمى عن كل ما هو سواه . لهذا يذهب عنه نور الملائكة الممثل فى الطهارة والبراءة والشعور بالاتحاد وروح الجماعة ليحل محله عمى الرجل الممثل فى المطامع والشهوات والشعور بالأنانية والفردية . وإن الشعور بوحدة الكون لهو الشعور بالله . لهذا

كانت الملائكة والأطفال أقرب إلى الله من الرجل . كل ذلك و إن جهله محسن بعقله الناشىء . . عقل طالب الكفاءة . . . فإنه كان يدركه بقلبه و بصيرته بغير أن يعلم . ألم يقل دستوفسكى . « إن الإنسان يعلم أشياء كثيرة بدون أن يعلم ؟ » .

غير أن محسن استطاع أن يدرك بعقله شيئاً واحداً . والفضل فيه لدرس التاريخ المصرى القديم : ذكره هذا المنظر فجأة دون أن تكون هناك مناسبة قوية بما طالعه عن عبادة قدماء المصريين للحيوانات أو على الأقل لرمزهم للإله الواحد برموز من الحيوانات المختلفة .

لماذا ؟

لم يستطع محسن علم السبب على التحقيق . وهنا أيضاً أدرك بشعوره إدراكاً مبهماً ما ترجمته عقلياً :

أليس أن المصريين القدماء كانوا يعلمون تلك الوحدة الكونية وذلك الاتحاد العام بين حلقات المخلوقات المختلفة ؟ وأن رمزهم للاله بتمثال نصفه إنسان ونصفه حيوان أليس دليل إدراكهم أن الكون إن هو الا اتحاد ؟ إنهم لم يزدروا الحيوان كما أن هذا الطفل لم يزدر العجل . فكما أنهم جعلوا الإله على صورة الرجل . فقد جعلوه أيضاً على صورة الحيوان والطير والحشرات . أليست كل تلك المخلوقات من عمل الله ؟ أوليس كل فعل ينم عن فاعله . وكل صناعة هى صورة لصانعها ! فلم لا يكون الحيوان أيضاً صورة للخالق أو إحدى صور الخالق كما أن الرجل كذلك !

الشعور بالاندماج فى الكون أى بالاندماج فى الله هوشعور ذلك الطفل وذلك العجل الرضيعين . هو شعور الملائكة . وهو أيضاً شعور ذلك الشعب العريق المصرى القديم .

لكن أليس فلاحو مصر الآن يمجدون الحيوان بقلوبهم ولا يأنفون العيش معه فى مسكن واحد والنوم معه فى قاعة واحدة !

أليس أن مصر الملائكية ذات القلب الطاهر ما برحت مصر ؟ وأنها ورثت على ممر الأجيال عاطفة الاتحاد بدون أن تعلم . . ؟

***

غادر محسن دار الفلاح بهذا الشعور النورانى وسار ممتلىء النفس بفرح لا يدرك كنهه . وكأن الله شاء أن يعجل ثمن هذا الفرح كدراً أو أن يتم على محسن صورة ما ارتسم فى نفسه . فإذا الفتى يسمع فى «الجرن» صياحاً وعويلا ونسوة يلطمن وجوههن فسارع يسأل عن الخبر فرأى جماعة من الفلاحين آتين من قلب غيط البرسيم وهم يحملون جاموسة تحتضر والنساء خلفها تبكى . وظن محسن بادىء الأمر أن هذا الصخب والعويل ولا شك على أحد مات أو حدثت له مصيبة . فلما رأى الجاموسة محمولة لم يفهم أيضاً ما يرى واقترب الجمع منه فسألهم . فقالوا له إنها جاموسة دار عرجاوى ظهرت عليها أعراض التسمم الآن فعالجوها بالذبح وهم يعزون صاحبها فيها وبدا على الجميع حزن وكآبة كأنما الميت إنسان !

عجب محسن بعد أن اطمأن قليلا وقال فى سره مردداً :

— جاموسة ! جاموسة !

وأراد أن يمضى مازحاً ساخراً بهؤلاء الفلاحين الذين يصنعون كل هذا من أجل جاموسة . فما هم صانعون لو مات صاحبها . ومرت به إحدى الفلاحات باكية فقال لها :

— كل ده علشان جاموسة ؟

فحدجته بنظرة مؤلمة وقالت :

— يا ريت كان واحد من عياله ولا هيه !

ثم سارت فى طريقها لا تلوى على شيء ...

وخجل محسن قليلا إذ ظهر له أنه مهما كان من أمره فلا يزال بعيداً عن فهم مشاعر هؤلاء القوم . ولعل حياة البندر والعواصم أفسدت قلبه . فاختفت فى الحال سخريته كما اختفى عقله ومنطقه وعاد إليه شعوره . فإذا هو يرثى لهؤلاء الفلاحين ويعجب بهم .

وسمع صوت وتد يدق فنظر فوجد على مقربة منه بعض « الأنفار » ينصبون عموداً من الخشب وسط الجرن ثم جيء بالجاموسة فعلقوها به وأخذوا يسلخونها . واجتمع أهل العزبة بعد قليل إلا صاحب الجاموسة فقد ذهب ولا شك إلى داره تواً يبكى مصيبته فى تلك التى لن يراها بعد اليوم تحت سقفه ولن يشاركها هواء القاعة وأديمها . ثم لما تم سلخها وجزرها جعل أحد أصدقاء المعزى يقطع من لحمها ويبيعه للفلاحين والكل يقبل على الشراء بغير مساومة ولا مماطلة كأنما يرون واجبهم ليس فقط

فى التعزية الكلامية بل فى تهوين الخطب على صاحبها بجمع ثمنها و إعطائه إياه تعويضاً له عن فقدها وأخبر أحد الفلاحين محسن أن هذه هى الطريقة المتبعة والعرف الجارى كلما فجع أحدهم فى ماشية له .

إنهم ليسوا كأهل البندر قوم كلام . والمشاركة فى الحزن ليست محض عبارات تقال . بل المشاركة الفعلية تخفيف الخطب بأن يضحى كل منهم بجزء من ماله فى سبيل الآخر .

صمت محسن وذهل وعاد إلى نفسه ذلك الفرح النورانى الذى لا يدرك كنهه . عاد إليه هذه المرة من الحزن كما تعود الحياة من الموت .

ما أعجبهم قوماً ! هؤلاء الفلاحون ! أيوجد بعد فى هـذه الدنيا تضامن جميل كهذا التضامن وعاطفة اتحاد كعاطفة الاتحاد هذه .

فتح محسن عينيه فى فجر اليوم التالى على زقزقة العصافير ، ورأى بوادر الصباح والشمس تشرق وكل ما حوله ينتعش فى هدوء فأشرقت نفسه وانشرح صدره ونهض إلى النافذة ففتحها على مصراعيها فإذا الحقل الأخضر والسماء الزرقاء والطيور والنور كلها تبتسم فى سكون . فأحس فى أعماقه لأول مرة جمال الحياة ، وأدرك لأول مرة ذلك الروى المنتظم لمخلوقات الطبيعة وكائناتها الهادئة . وتولد عنده شعور مبهم خفى بأن الخلود إن هو إلا امتداد لحظة كهذه اللحظة ..

ولقد صدق شعور محسن الخفى هذا . ولو أنه أوتى مقداراً من العلم بتاريخ هذا الوادى لعرف أن سكانه الغابرين ما كانوا يعتقدون بجنة أخرى غير

جنتهم تلك ولا بخلود آخر . وأن معنى الخلود بعد الموت عندهم إن هو إلا العودة إلى هذه الأرض ذاتها ثم الموت ثم البعث إليها مرة أخرى ... وهكذا دواليك . . لأن الله لم يخلق جنة غير مصر .

ولبس الفتى ملابسه بسرعة وخرج إلى الحقول وتوغل فيها وهو يفتح رئتيه لذلك الهواء الدسم العجيب . . هواء مشبع برائحة الحياة والخلق ، كذلك الماء والطمى فى الجداول والقنوات يحمل الحياة والخلق أيضاً . . .

شعر محسن بقوة ونشاط فى بدنه و بشر بالحياة وتقبل لها وابتهاج .. كما شعر بالحب فى قلبه ينتعش أيضا انتعاش ذلك النبت الصحيح القوى تحت حرارة الشمس المباركة ... ولم لا وكل شىء حوله قوى صحيح منتعش ...

ما أجمل الحياة !

و بلغ مسمعه عندئذ صوت غناء لذيذ فالتفت فإذا الفلاحون عن كثب مجتمعون والمناجل بأيديهم يحصدون المحصول . و إذا أكوام منه مصفوفة وهم ينشدون جميعاً نشيداً يبدأ به أحدهم وهم يعقبون . ويحمل النسيم صوتهم إلى آذان محسن والشمس قد ارتفعت عن الأفق بقليل ولا يزال الشفق أحمر دامياً عقب ميلادها . أى صوت وأى نشيد ؟ أتراهم يرتلون نشيد الصباح احتفالا بولادة الشمس كما كان يفعل أجدادهم فى الهيا كل أم أنهم يرتلون ابتهاجاً بالمحصول معبودهم اليوم الذى قدموا له قربانا العمل والكد والجوع والبرد طول السنة ! نعم إنهم ضحوا بكل ما يستطيعون من

أجل هذا المعبود ... فليرأف بهم وليكثر لهم وليملأ دورهم رخاء .

وسار محسن إليهم حتى صار بينهم وهم دائبون على العمل والغناء وجعل ينظر إليهم وإلى وجوههم وهو يعجب . إن ملامحهم وما يرتسم على وجوههم من معان إنما كان شيئاً واحداً كأنما هم جميعاً على اختلافهم شخص واحد : العمل والأمل ...

ونظر إليهم وكل يحمل ما حصد ويزيد به الكوم فإذا هم ينظرون إلى المحصول المجموع باهتمام وحب وكأنما يقولون له : « لا يهم التعب ولا يهم الشقاء فى سبيلك أيها المعبود ! »

***

وانقضى النهار وعاد محسن إلى البيت وقد ترك كل ما رأى أثراً فى نفسه يحسه ولا يفهمه . وإذا العدوى تجعله يفكر هو أيضاً فى « معبوده » . ولكنه استوى فجأة وقد مرت بخاطره فكرة ارتجف لها : « هل يستطيع هو أيضاً أن يضحى فى سبيل سنيه ... وأن يقذف بنفسه فى الألم والشقاء من أجلها ... أم أنه ليس من دم ذلك الفلاح ! »

***

وجاء الليل وانتشر فى الجو صدى نقيق الضفادع وسكن الطير والحيوان وطلع القمر وثقل الهواء وامتنع النوم على محسن وهاج ساكن نفسه جمال الليل فظل لحظة ينظر إلى القمر ويقول له : « ترى هل تنظر هى إليك أيضاً هذه الساعة ؟ » ثم خرج إلى الجرن متقد القلب عسى أن يجد ما يلهيه . وإذا

هو يرى الفلاحين وقد اجتمعوا فى دائرة تحت نور الكوكب الجميل . وقد وضعوا وسطهم « عدة الشاى » .

والشاى عند الفلاح الآن معبود آخر أدخله البدو الرحل وعلموه الفلاح فتعلق به بينما سلاه البدو ... شأنهم فى كل شىء .. لا يستقرون على عمل ولا على حب ... ولا على موطن إقامة . ولكن الفلاحين أنزلوه من أنفسهم منزلة الاهتمام . فأصبحوا لا يطيقون الامتناع عنه . وهم يشربونه جماعة كالصلاة الجماعة .. بعد أن يفرغوا من عمل النهار الشاق . وقد صنعوا « للبكرج » كرسياً صغيراً من الخشب يوضع فوقه ويحيطون هم به كأنه تمثال إله فوق قاعدة . ويتولى أحدهم إدارة الفناجين عليهم . غير أن هذا الشراب يكلفهم أحياناً ما لا يطيقون . وكم من موسر فيهم افتقر فى سبيله مما يغالون فى طريقة صنعه وفى كيفية شربه والعزومة على الإخوان .. وعقد مجالس الشاى .

وذهب محسن إليهم حتى داناهم . ورآه شيخ العزبة فنهض إليه وعزم عليه بالشراب وقدم له فنجانا . فلم يمانع محسن تأدباً وتواضعاً وجلس بينهم بجوار الشيخ حسن الذى أفسح له محلا بعد أن فرشه بقش الدريس الجاف . وسر الفتى بذلك واستحى الفلاحون منه قليلاً بادئ الأمر . لكنه شجعهم فى لطف على الكلام . فمضوا يتحدثون بأحاديثهم الساذجة . وكلما فرغ أحدهم من فنجان تقدم به إلى البكرج . واستبطأ الشيخ حسن شرب محسن فأراد له فنجاناً آخر فابتسم الفتى وأراه داخل فنجانه فإذا هو

لم يشرب سوى جرعه واحدة . فقال أحدهم فى بساطة :

— البيه مش عاجبه شاى الفلاحين .

فأجابهم محسن بأن هذا ليس السبب . إنما هو غير معتاد صنعه بهذه الطريقة :

— ليه بتعملوه كده ؟ دا اسود زى الحبر ومرّ زى الحنضل !

فإذا بصوت فلاح يعلو من بين الجميع قائلا :

— إيه يابيه ! دا حتى الليلة خفيف زى « لمية » الطلمبة ..

فقهقه محسن ضاحكا . وسر الفلاحون إذ أمكنهم إضحاك البك الصغير وإدخال السرور عليه . ثم انتقل الحديث إلى الشاى وحب الفلاحين له وكيف أن صنعه وتهيئته بهذه الطريقه يتطلب من السكر والشاى مقداراً جسيما . . ومع ذلك فلم يحجم الفلاحون عن التضحية فى سبيله ومضاعفة التعب والكد للحصول على ثمنه . . غير أن منهم من بلغ به الولع أن ضحى بثروته كلها أو بعضها . وما وصل الحديث إلى هذا الحد حتى التفت أحد الفلاحين إلى محسن وأشار له بيده إلى فم البكرج المستطيل وقال :

— « تصدج » بالله ؟ عشرين « ناجه » وعجلين خرجوا من دى البزبوز ..!!!

الفصل السابع

عاد محسن إلى قلقه . فقد مضت أيام دون أن يصل الخطاب الموعود . واشتد به الضيق أن زهد فى كل ما حوله . وكأن عينه أصبحت لا ترى شيئا ولا يرجى منها شيء . وكره الإقامة وود لو يعود إلى مصر تواً . وكلما ذكر سنية خيل اليه أن فراقه عنها كان أعواماً لا بضعة أيام . وعجب كيف يمكث هنا . وكيف يستطيع الابتعاد عنها أكثر من ذلك . فقام إلى والدته يعرض عليها رغبته فى السفر . لكنه الفى البيت قائماً على قدم وساق وسمع جلبة أوان وأطباق وتهيئة موائد وتجهيز أطعمه فسأل عن الخبر فقيل له هى « عزومة » يقيمها والده لمفتش الرى الإنجليزى ولأحد كبار موظفى الآثار الفرنسيين بمناسبة تشريفهما المديرية . وتفقد والده فعلم أنه ذهب بالعربة إلى دمنهور ليأتى بالضيوف . وكانت والدته منهمكة فى ملاحظة الاستعدادات فلما رأته ابتسمت وقالت وهى تشير إلى الخروف « الأوزى » والطباخ يزينه بالورد والعتر والزهر :

— شايف يامحسن . بكره يقولوا عزومتنا أحسن من عزومة المدير ...

ودخل عندئذ ناظر العزبة يرتدى « غزليته » الممتازة ويحمل « قفة »

بها بضعة أزواج من الحمام والدجاج فنظرت إليها الست ثم قالت شزراً :

— بس دول اللى لقيتهم فى العزبه ؟ !

فأجاب الناظر فى خشية وتأدب :

— الفلاحين فقراء مساكين ياست .

فقالت السيدة بجفاء :

— فقراء مساكين ! لو كنت شغلت الكرباج كنت جبت قد دول مرتين . لكن انت ناظر غشيم ...

فسكت الناظر قليلا ثم رفع رأسه وأشار إلى الضأن « الأوزى » مبتسماً وقال مراضياً السيدة :

— ما هو الخير كتير ياست . دا الواحد منا بلا قافية يافلاحين ما يدوق اللحم إلا من الموسم للموسم ...

فلم تجب . واقترب منها محسن وقال :

— يا نينة الأكل ده كفاية علشان ضيفين !

فقالت :

— أنا عايزه عزومتنا تكون أحسن من عزومة المدير .

ثم التفت إلى الناظر ونظرت إلى ملابسه ثم قالت منتهرة :

— امشى يا راجل يا فلاح إلبس أحسن ما عندك .

فأطرق الرجل خجلا ولم ينبس بحرف وقد احمر وجهه قليلا ولاحظ محسن خفية ذلك فتأثر له .

ورأت الست وجومه فأعادت الكرة بقوة هذه المرة :

— الله . . عجايب ! واقف ليه ؟ مستنظر إيه ؟

فأجاب الرجل بصوت ضعيف متلعثم وابتسامة الحائر الساذج الخجل وهو ينظر إلى الأرض :

— ما هو ده يا ست أحسن ما عندى . . .

وسكت قليلا مطرقاً . ثم رفع رأسه وقال فى بساطة واعتقاد وهو يتناول طرف ثوبه ويريه للسيدة :

— ودى « شينة » يا ست ؟ وحياة راس النبى دى غزلى ؟

فلم «تتنازل» السيدة إلى رؤية ثوبه . وأدارت ظهرها ومشت إلى عمل تلاحظه . وسار خلفها محسن وهو يود لو يخلو إليها ليرجوها أن تخفف من وطأتها على هؤلاء القوم . وليفهمها أن هؤلاء الفلاحين المساكين لا يعرفون الأبهة !

* * *

ما قاربت الساعة الواحدة ظهراً حتى نبح كلب العزبة دليل قدوم غريب . وبدا عفار العربة بخيلها المطهمة عند الجسر ومرت تحت الجميزة ودخلت جرن العزبة . ونزل منها أفرنجيان بالقبعات ثم البك صاحب الدار . ووقف الضيفان لحظة يتأملان ما حولها وينظران إلى الحقول المنبسطة خضراء كالبحر . ووقف أمامهما وبين أيديهما الناظر والشيخ حسن بأدب فى انتظار أمر أو إشارة فأبدى الضيف مفتش الرى الإنجليزى

رغبته فى الجوس خلال المزارع لحظة ليرى المصارف و يتأكد من تطهيرها و يشاهد فتحات الرى ومقاسها ونسبتها إلى الترعة والأطيان . فصار الجميع إليها وقد أومأ البك إلى الناظر والشيخ فأسرعا يتقدمان ويدلان على الطريق . وفرد البك مظلته البيضاء ذات اليد الذهبية ورفعها فوق رأس الضيفين وهو يصف لهما طرق الرى والصرف فى هذا الربع الشرقى الذى يمرون به . والضيف الفرنسى يبتسم معجباً بانبساط الأرض ولونها الزبرجدى ويدهش أن مصر كلها كذلك كأنما الآلهة الأقدمين قد بطحتها خصيصاً وهيأتها لسكان مصر الطيبين .

فالتفت إليه البك وسأله فى سذاجة « أليست أرض فرنسا كذلك ؟ » فأجابه الضيف « فرنسا كلها منحدرات ومرتفعات وقلما تجد فيها بقعة منبسطة هذا الانبساط » ثم نظر إليه ضاحكا « فرنسا لم يسعدها الحظ أن تكون يوماً موطناً للآلهة يدحونها كما فعلوا بأرضكم » .

فلم يفهم البك قوله جيداً غير أنه أجابه « صدقت يا جناب المفتش أرضنا زراعية من قديم الأزل » .

وأدرك الفرنسى من هذا القول معنى أبعد مما يقصده البك فقال « نعم نعم . . إنكم شعب عريق الحضارة لا كشعوب أوربا الوصولية . »

فلم يجب البك . وعندئذ انحنى الانجليزى على الأرض وتناول منها قبضة من التراب فركها بين أصابعه وهو يتمتم خافتاً معجباً بخصوبة التربة: « ذهب . . ذهب ! » ثم أومأ بالرجوع . فرجع الجميع إلى البيت حيث

مدت المائدة ووقف الخادمان النوبيان بثيابهما البيضاء النظيفة وحزاميهما الأحمرين . وقدم الطعام . . .

***

كان محسن فى هذه الآونة بجانب والدته فى الدهليز الذى بين المطبخ وحجرة المائدة . الوالدة تلاحظ ترتيب الأصناف والألوان وترتب بنفسها ما تجده ناقصاً قبل أن تسمح للخادم بالدخول به على الضيوف . ومحسن واقف ينظر وقد سال لعابه جوعاً وهو يعلل نفسه بالضأن « الأوزى » وينتظر عودة ما يفضل منه بعد الضيوف ووالدته تصبره قائلة إن الواجب يقضى بأن يأكل الضيوف أولا وبعد ذلك يبدآن هما الاثنان . غير أن والدته فى تلك الساعة كانت مشغولة البال منهوبة الخاطر تجرى هنا وهناك تلاحظ وهى مضطربة طالبة من الله أن تتم الوليمة على خير . . وأن يذهب الضيفان مسرورين معجبين . وهى تود لو تعلم ما يقولان الساعة عن الأكل والتنظيم فكانت أحياناً تترك محسن وتذهب فى أثر الخادم محترسة وتقترب خفية من الباب مختلسة البصر مسترقة السمع عليها تلتقط كلمة إعجاب من أحد الضيفين . . .

وفرغ المدعوان من الأكل ولم يبق غير الحلو والفاكهة . ودخل الخادمان بأطباق الحلو . وعندئذ خرج البك يجرى من قاعة الطعام وذهب إلى زوجته تواً يسألها هامساً فى سرعة وخطورة :

— فين الجبنة ؟ قوام الجبنة !

فتجهمت زوجته ونظرت إليه ساهمة بلا حراك .

— جبنة ؟ جبنة إيه ؟

— أيوه . . قوام ! طالبين جبنه . . يختموا الأكل بجبنه . . .

— جبنه ! بعد الأكل ده كله ؟ !

— أيوه . . خلصينا . . اعملى معروف . . .

وفى الحال نادت الست خدمها همساً وسألت عن الجبنة فقيل لها لا يوجد قط سوى جبنة « قريش » منغمسة « بالمش » فى القدر . فلطمت وجهها وهى تتساءل عن المخرج من هذا المأزق وزوجها يصيح همساً :

— جبنة « قريش بالمش » ما يمكنش أبداً ! خواجات يا كلوا « مش » مش ممكن . ! نوكلهم « مش بدوده » مش ممكن أبداً !

فقالت الست بصوت مختنق يأساً :

— يا مصيبتى ! ونعمل إيه دلوقت ! أعمل إيه بس يا اخواتى دلوقت !

فقال لها زوجها فى لهجة المؤنب :

— انت مش عارفه أن العزايم يبقى فيها جبنة ؟

فعاودت الست عزة نفسها وكبرياؤها ووضعت يديها فى خصرها وصاحت بزوجها :

— بتقول إيه بسلامتك ؟ العزايم ؟ أنا واحده أفهم الصورة إيه . . ومتربيه فى بيوت باشوات . . وأعرف الأكل العثمانلى ! مين يقول إن

بعد الخروف المحشى بالزيب والبندق والصنيبر والفراخ والحمام إللى بالتربية والشركسية والألنجى ضامه حد يا كل جبنه !

— أهم طالبين جبنه . . نعمل إيه دلوقت ؟

فرجعت الست إلى الحيرة واليأس وأخذت تسأل الخدم من جديد وتلح وتتوسل . وأخيراً ظهرت خادمة وصاحت بفرح أن يوجد قطعة جبنه «رومى» عثرت عليها فى «الكرار» .. وما كادت تذكر ذلك حتى هرعت الست نحوها وهرع الجميع كأنما وجدوا لقيا . وانقلب اليأس فرحا واطمأن البك فترك زوجته وأسرع يلحق بضيوفه بعد أن أكد على زوجته بسرعة تقديم تلك القطعة . وأخيراً جاءت الخادم بقطعة الجبن « الرومى » من الكرار فإذا هى سمراء اللون من القدم . واتضح للجميع أن سبب ترك هذه القطعة فى الكرار منذ زمن هو استعمالها طعما للفيران وتعمير مصيدة الفيران بها .. فترددت الست قليلا وعاد إليها الغم .. لكنها صممت أخيراً على الأمر وقالت للخدم .

— فيران والا قطط . . . أهى أحسن من بلاش والسلام ! يعنى هم رايحين يعرفوا . . ؟ !

وتناولتها بيدها فى حرص وذهبت بها إلى الحنفية كى تغسلها وتزيل ما عليها من لون القدم ومن القذارة . وتبعها كل أهل البيت من بطانة وخدم وهم ينظرون إلى قطعة الجبن فى يد الست كأنهم ينظرون إلى قطعة من الجوهر الثمين . . ولفرط اهتمام الجميع بتلك القطعة النادرة أرادوا أن يساعدوا

الست فأحاطوا بها بعضهم يفتح الحنفية . . والبعض يقترح غسلها « بالليفة والصابونة » حتى تعود بيضاء ناصعة . والبعض يرى خطر الغسل عليها ويقول بمسحها بخرقة مبللة فقط وآخر لا يرى الغسل ولا المسح ويقترح الكشط أى كشط السطح المتسخ بسكين حاد . . وبينا الجميع فى هذه الاقتراحات وهذا الاهتمام وإذا بالست القابضة على القطعة تصيح فجأة : ذلك أن القطعة انزلقت من يدها لفرط حرصها وسقطت فى « البلاعة » فبهت الجميع لحظة وقد دهاهم الأمر ثم صحوا لأنفسهم وانقضوا على « البلاعة » جميعهم دفعة واحدة وأخرجوا قطعة الجبن الرومى منها بعد جهد واستماتة ولم يروا بداً من غسلها هذه المرة . . وما وضعت فى الطبق وقدمت للضيوف حتى رفعت الست رأسها وتنفست الصعداء . ! ! !

انتهى الضيفان من الطعام. وقدمت لهما القهوة. وإذا البك يظهر مسرعاً فى الدهليز ويسأل عن محسن . فأقبلت نحوه الست وكان أول ما فاهت به أن سألته عن نتيجة الوليمة وعما قال الضيفان فى الأكل والتنسيق . ولكن البك لم يجبها بل سألها فى عجلة :

— فين محسن ؟ فين محسن ؟ عايزين يشوفوه . .

وأراد أن يخبرها بأنه قال لهما إن له ولداً فى الكفاءة يعرف الإنجليزية وأن جناب المفتش الانجليزى ود لذلك أن يراه . . غير أن زوجته قاطعته قائلة :

— طيب . . طيب . المهم قالوا إيه على العزومة ؟ وقالوا إيه على

الجبنه . . إحكى لي . . .

فانحنى عليها وهمس فى أذنها :

— مبسوطين قوى !

فانفرجت شفتا الست بالابتسام وقالت فى كبرياء وزهو وخيلاء :

— علشان تعرف إنى مدنتك ورقيتك يافلاح ياجعيدى ! مش تقول لى بقا كتر خيرك ؟ ؟

فضحك البك وقال لها :

— طيب . . كتر خيرك .

فاستطردت تقول فى تعاجب ومباهاه :

— مش أنا اللى قلت لك أعزمهم ؟

— إيوه انت .

— اسمع كلامى دايماً وانت تبقى أبهة . بكره كمان اعزم المدير علشان يعرف . .

فحك البك رأسه قليلا ثم نبس قائلا فى قلق .

— بس . . . المصاريف . . .

فرمقته الست بنظرة أسكتته فى الحال . فلم يعد يفكر بالنقود الهائلة التى تضيع فى ولائم واحتفالات منذ سنوات وسنوات . . . وأخذ يبحث حوله بارتباك ويقول :

— فين محسن ؟ فين محسن ؟

كان الضيفان فى تلك الأثناء يرشفان القهوة وقد غرقا فى كرسيين كبيرين ووجهاهما قبالة نافذة مفتوحة على مصراعيها تطرح أمام ناظريهما فضاء أخضر لا حد له وسكون ساعة الظهيرة التام حيث الفلاحون فى دورهم يستريحون أو تحت ظلال أشجار السنط واللبخ بقرب السواقى . وسكنت البهائم أيضاً وربض كلب العزبة وأغمض إحدى عينيه . حتى الطيور من قبر وأبى فصادة كأنها فى هدنة قد هدأت على الأغصان فوق رؤوس الفلاحين الراقدين وقد أبطلت زقزقتها وأخذت تشغل الوقت « تفلى » ريشها بمنقارها بعضها البعض . . .

وهب عندئذ على الضيفين نسيم جميل فأغلق الفرنسى أهدابه نصف إغلاق وقد قعس رأسه إلى الوراء وأخذ يدخن من لفافة فى يده وكأنما هو فى حلم ساحر . ولكن رفيقه الإنجليزى لم يفقد نشاطه ولم يتراخ بل دس يده فى جيبه وأخرج غليونه وأخذ يحشوه بالتبغ وهو معتدل الجلسة منتصب القامة متزن الحركة قوى النظرة . حتى فرغ من غليونه ووضعه فى فمه وأوقده فاستوى واقفاً وأراد أن يمشى جيئة وذهاباً فى الحجرة أو أن يخرج إلى حديقة المنزل . ولكن صاحبه الفرنسى مد يده إليه وأومأ له بلطف أن يجلس حيث كان . ثم قال له فى صوت النائم :

— إلى أين ؟ ألا يؤثر فيك هذا النسيم الرقيق يا مستر بلاك ؟

فالتفت اليه الإنجليزى ثم التفت إلى النافذة كأنما يبحث عن هذا النسيم يريد أن يراه بعينه . وكان الفلاحون عندئذ قد بدأوا ينهضون

زرافات ووحداناً كل يحمل فأسه أو منجله كي يستأنفوا أعمالهم بالحقول .

فقال الانجليزى لرفيقه :

— لا أرى إلا أسراباً من ذوى الجلاليب الزرقاء . . .

فنظر الفرنسى إلى الفلاحين ثم قال معجباً :

— ما أجمل ذوقهم ! لون لباسهم كلون سمائهم !

فارتسمت على فم الانجليزى ابتسامة تهكم وقال :

— إنك تبالغ إذ تحسب لهؤلاء الجهلاء ذوقاً !

فأجاب الأثرى الفرنسى بأيمان وقوة :

— جهلاء ! إن هؤلاء الجهلاء يا مستر بلاك أعلم منا . . .

فضحك الانجليزى وقال أيضاً فى تهكم :

— لأنهم ينامون مع البهائم فى حجرة واحدة !

فأجاب الفرنسى بجدّ :

— نعم وبالأخص لأنهم ينامون مع البهائم فى قاعة واحدة .

فالتفت اليه مستر بلاك محدقاً ومبتسما :

— إنها نكتة ظريفة يا مسيو فوكيه .

فأجاب الفرنسى :

— بل حقيقة تجهلها أوربا للأسف . . نعم إن هذا الشعب الذى نحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة . ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله . إن الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم . والقوة فى نفسه ولا يعلم . هذا شعب قديم .

جىء بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدرى . . .

نعم هو يجهل ذلك . ولكن هناك لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب فتسعفه وهو لا يعلم من أين جاءته . هذا ما يفسر لنا نحن الأوروبيين تلك اللحظات من التاريخ التى نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت . . وتأتى بأعمال عجاب فى طرفة عين . كيف تستطيع ذلك إن لم تكن هى تجاريب الماضى الراسبة قد صارت فى نفسها مصير الغريزة ، تدفعها إلى الصواب وتسعفها فى الأوقات الحرجة وهى لا تدرى . لا تظن يا مستر بلاك أن هذه الآلاف من السنين التى هى ماضى مصر قد انطوت كالحلم ولم تترك أثراً فى هؤلاء الأحفاد . . أين إذن قانون الوراثة الذى يصدق حتى على الجماد ؟ ولئن كانت الأرض والجبال إن هي إلا وراثة طبقة عن طبقة فلماذا لا يكون ذلك فى الشعوب القديمة التى لم تتحرك من أرضها ولم يتغير شىء من جوّها أو طبيعتها ؟ نعم أن أوربا سبقت مصر اليوم . ولكن بماذا ؟ بذلك العلم المكتسب فقط الذى كانت تعتبره الشعوب القديمة عرضاً لا جوهر ودلالة سطحية على كنز دفين ، لا أنه هو فى ذاته كل شىء . إن كل ما فعلناه نحن الأوروبيين الحديثى النشأة أن سرقنا من تلك الشعوب القديمة هذا الرمز السطحى دون الكنز الدفين . لذلك جىء بأوروبى وافتح قلبه تجده خالياً خاوياً . الأوروبى إنما يعيش بما يلقن ويعلم فى صغره وحياته .

لأنه ليس له تراث ولا ماض يسعفه بغير أن يعلم . أحرم الأوربى المدرسة يصبح أجهل من الجهل . قوة أوروبا الوحيدة هى فى العقل . . تلك الآلة المحدودة التى يجب أن نملأها نحن بإرادتنا . أما قوة مصر ففى القلب الذى لا قاع له . ولهذا كان المصريون القدماء لا يملكون فى لغتهم القديمة لفظة يميزون بها بين العقل والقلب . العقل والقلب عندهم كان يعبر عنهما بكلمة واحدة هى : القلب . وسكت الأثرى الفرنسى برهة ونظر إلى وجه المستر بلاك ليتعرف أثر ما قال فيه فوجد ملامح جامدة وشفتين تنفرجان عن ريبة وشك .

فاستطرد الفرنسى يقول :

— نعم يا مستر بلاك . هؤلاء الفلاحون لهم ذوق وذوق جميل . وهم إن سألتهم عن كلمة ذوق لجهلوا معناها . أما نحن فنعرف جيداً معنى كلمة « ذوق » ولكن ثق أن فينا عدداً كبيراً ليس له ذوق . نعم هذا هو الفرق الوحيد بيننا و بينهم : إنهم لا يعلمون ما عندهم من كنوز .

عندئذ همّ الانجليزى بالنهوض وهو يقول متهكما :

— إنكم معشر الفرنسيين تضحون بالحقائق فى سبيل الكلام .

فأجلسه مسيو فوكيه بيده وقال محتداً :

— الحقائق ؟ الحقائق معى يا مستر بلاك . إنك تعرض بضعف هذا الشعب الآن . أليس كذلك ؟

— وأيضاً أخلاق أهله لا تعجبنى .

— أخلاق أهله ؟

— نعم .

— ثق يا مستر بلاك أن الفاسد من هذه الأخلاق ليس من مصر . بل أدخلته عليها أمم أخرى كالبدو أو الأتراك مثلا . ومع ذلك فلا يؤثر هذا فى الجوهر الموجود دائماً .

— قل لى ما هو هذا الجوهر ؟

— إنك ترتاب فى قولى . ولكنى أكتفى بأن أقول لك احترس ! احترسوا من هذا الشعب . فهو يخفى قوة نفسية هائلة !

فالتفت إليه مستر بلاك جاداً لحظة ثم عاد فابتسم ابتسامته المتهكمة ، وقال :

— يخفيها أين يا مسيو فوكيه ؟

فأجاب الأثرى الفرنسى بهدوء واقتناع :

— فى البئر العميق الذى خرجت منه تلك الإهرامات الثلاث .

فقال الانجليزى فى فتور :

— الاهرامات . . ؟

فأجاب العالم الفرنسى للفور :

— نعم الاهرامات . . . التى قصدها شامبليون بقوله :

« لا أستطيع أن أصفها إذ أن شيئاً من اثنين : إما أن كلامى لن يعبر عن جزء من ألف مما يجب أن أقول وإما أني لو أردت رسم أبهت

صورة للحقيقة لعدنى الناس مغرقاً فى الحماسة أو مجنوناً . ولكنى أقول شيئاً : أولئك القوم كانوا يشيدون كعالقة طولها مائة ذراع . . . » والتى قال عنها فيلون البيزنطى فى كتابه عجائب الدنيا السبع :

« كان أولئك القوم يصعدون إلى الآلهة وكانت الآلهة تهبط اليهم » . وحتى العلماء الحديثين يقولون إنه غير مصدق أن مشروعاً كهذا أمكن تنفيذه . . وعلى حدّ قول موريه عالمنا الأثرى : « إنه حلم فوق مستوى البشر قد تحقق مرة على هذه الأرض ، ولكنه لن يعود أبداً » تلك هى الاهرامات . . .

فنظر اليه الانجليزى وقال باسما :

— وكل هذا خرج من بئر . . . أى بئر ؟؟؟

فأجاب مسيو فوكيه بهدوء :

— هذا .

وأشار بأصبعه إلى الجهة اليسرى من صدره .

— القلب ؟؟؟

فلم يجب الفرنسى . ولم يتكلم الانجليزى بعد ذلك ، وصمت الاثنان لحظة ، وساد السكون فى الغرفة . . .

وعندئذ ظهر البك بالباب و بيده محسن وقد ارتدى بذلته ورتب شعره طول هذه الأثناء . وما كاد البك يلقى نظرة على الغرفة الساكنة حتى

اختفى فى الحال هو ومحسن ورجعا من حيث جاءا على أخماص الأقدام ولم يشعر بهما أحد من الضيفين .

واستوى بعد قليل العالم الفرنسى فى كرسيه وأشعل لفافة أخرى وأرسل نفخة من الدخان فى الهواء ثم قال :

— أرى أن قولى لم يفحمك يا مستر بلاك ؟

فالتفت اليه المفتش الإنجليزى بأدب وقال .

— أعترف بذلك .

فسكت الفرنسى هنيهة ثم قال :

— نعم . لنا العذر أن لا نفهم هذا . إن لغتنا نحن الأوروبيين لغة المحسوسات . إننا لا نستطيع أن نتصور تلك العواطف التى كانت تجعل من هذا الشعب كله فرداً واحداً يستطيع أن يحمل على أكتافه الأحجار الهائلة عشرين عاماً ، وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد راض بالألم فى سبيل المعبود . إنى لموقن أن تلك الآلاف المؤلفة التى شيدت الاهرام ما كانت تساق كرهاً كما يزعم هيرودت الإغريقى عن حماقة وجهل . وإنما كانت تسير إلى العمل زرافات وهى تنشد نشيد المعبود كما يفعل أحفادهم يوم جنى المحصول . نعم كانت أجسادهم تدمى ، ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفية . . لذة الاشتراك فى الألم من أجل سبب واحد ، وكانوا ينظرون إلى الدماء تقطر من أبدانهم فى سرور لا يقل عن سرورهم برؤية الخمور القانية تقدم قرابين إلى المعبود ، هذه العاطفة عاطفة السرور بالألم جماعة ..

عاطفة الصبر الجميل ، والاحتمال الباسم للأهوال من أجل سبب واحد مشترك . . عاطفة الايمان بالمعبود والتضحية ، والاتحاد فى الألم بغير شكوى ولا أنين . . هذه هى قوتهم . . .

انتصب عندئذ المفتش الانجليزى فى كرسيه وقد بدا على ملامحه معنى الجدّ والاهتمام وكأنما قد أفحمه بعض ما سمع . وعندئذ هب النسيم عليهما هبة حملت إلى آذانهما فى هذا السكون التام أصوات الفلاحين يغنون عن بعد غناء جميلا ، فاشرأب الفرنسى قليلا ثم أشار اليهم بيده وقال :

— هل رأيت فى بلد آخر أشقى من هؤلاء المساكين ! أنت مفتش رى وتعلم جيداً يا مستر بلاك ، أوجدت أفقر من هذا الفلاح المصرى ولا أهول عملا ، إنى أعلم ذلك أنا أيضاً فقد اشتغلت بالحفر عن الآثار فى قرى الصعيد . وخالطت بعض الفلاحين وعلمت كل شىء ، عمل ليل نهار فى الشمس المحرقة والبرد القارس وكسرة من خبز الأذرة وقطعة من الجبن مع بعض الأعشاب من السريس وغيره مما ينبت وحده . تضحية مستمرة وصبر دائم ، ومع ذلك فهم يغنون . . . اسمع برهة يا مستر بلاك !

وسكت الأثرى الفرنسى هنيهة كأنما يستفسر روح هذه الأغنية التى تأتى مع النسيم ، ثم استطرد يقول :

— أتسمع هذه الأصوات المجتمعة الخارجة من قلوب عدة ؟ ألا تخالها خارجة من قلب واحد ؟ إنى أؤكد أن هؤلاء القوم يحسون لذة فى هذا الكدح المشترك . هذا أيضاً الفرق بيننا وبينهم . إن اجتمع عمالنا على

الألم أحسوا جرائم الثورة والعصيان وعدم الرضى بما هم فيه ، وإن اجتمع فلاحوهم على الألم أحسوا السرور الخفى واللذة بالاتحاد فى الألم ، ما أعجبهم شعباً صناعياً غداً ! . .

أسند المفتش الانجليزى يده إلى جبينه لحظة كالمتأمل ثم قال :

— ما كنت أحسبك جاداً وأنت تفهمنى أن بين مصر اليوم ومصر بالأمس علاقة .

فأجاب العالم الفرنسى :

— وأى علاقة ! قلت وأقول أيضاً إن الجوهر باق دائماً ، إن هؤلاء الفلاحين الذين يغنون من قلب واحد . . المتعددين اللذين تجمعهم العاطفة والايمان فى واحد . . ما زالوا يعون بقلوبهم ولا يعلمون تلك العبارة التى كان أجدادهم يندبون بها موتاهم فى الجنائز :

« عند ما يصير الوقت خلوداً سنراك من جديد لأنك صائر إلى هناك . حيث الكل فى واحد » .

وها هم اليوم الفلاحون الأحفاد من جديد . . . يذكرون فى أعماق قلوبهم أن الكل فى واحد . .

وصمت العالم الفرنسى قليلا ، وعندئذ نبس المفتش الانجليزى قائلا ، وكأنه ما زال تحت تأثير ما سمع :

— شىء غريب . . !

فأجاب الأثرى الفرنسى :

— نعم ، ومع ذلك فلو ذكرت أن هذه العواطف هى التى شيدت الأهرام لزال عجبك ، وإلا فكيف كنت تريد أن يبنى هذا الشعب بناء كهذا إن لم يكن هذا الشعب كله قد تحول فى وقت ما إلى كتلة آدمية واحدة تستعذب الألم فى سبيل واحد : « خوفو » ممثل المعبود ورمز الغاية . . . فلمعت عين الانجليزى لمعاناً ، لا أحد يدرى إن كان بارقة الإعجاب أو القلق ، وهمس وهو يفكر :

— صدقت . . .

فأردف الأثرى الفرنسى يقول وكأنما يختتم مقدماته السالفة :

— إن هذا الشعب المصرى الحالى ما زال محتفظاً بتلك الروح .

فسأله الإنجليزى على الفور :

— أى روح ؟

فأجابه بثقة وتؤدة :

— روح المعبد .

فأنزل الإنجليزى الغليون من فمه ، وسدد نظرات جامدة ساهمة إلى النافذة ، فالتفت اليه الفرنسى وكأنما أدرك ما فى نفس الانجليزى من قلق فابتسم خفية ثم وضع يده على كتف الانجليزى وقال بغتة :

— أجل يا مستر بلاك ! لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم ، إن القوة كامنة فيه ولا ينقصه إلا شىء واحد . . .

— ما هو ؟

— المعبود .

فنظر الإنجليزى اليه نظرة لا يدرى ، أمعناها الاستيضاح أم الموافقة ، فأجابه الفرنسى بعد هنيهة .

— نعم ينقصه ذلك الرجل منه الذى تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية . . . عند ذاك ، لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذبِ ، والمستعدِّ للتضحية إذا أتى بمعجزةٍ أخرى غير الأهرام . . .

فى هذه اللحظة سمع صوت البك بالباب يرحب بهما ويقول إنه كان يحسبهما قد أخذتهما إغفاءة الظهيرة فلم يرد أن يزعجهما ثم نادى محسن وقدمه اليهما فنهضا يستقبلانه فى لطف وعطف وبشاشة ، ومحسن مصطبغ الوجه حياء وأدباً وقد دعاه والده إلى الكلام قائلا فى تباه :

— كلم جناب المفتش بالانجليزى يا محسن !

الفصل الثامن

لم يبق من الأسبوع غير يومين ولم يصل خطاب سنية بعد . فكاد محسن يجن يأساً . وهو الذى ما ارتضى البعد عنها تلك المدة إلا طمعاً فى رسالة مكتوبة بخطها . وعاوده الشك وتسلطت عليه الأوهام مصورة له شر الصور . غير أن الأمل ما لبث أن جاء لنجدته فأخذ يلتمس لها المعاذير ويضع الذنب كله على عاتق عمته زنوبه التى قد تكون أهملت ولم تف بوعدها ولم تطلب إلى سنيه تحرير الخطاب المنتظر . وارتاح إلى هذه الفكرة فسكن قلقه قليلا . غير أن هذا لم يمنعه من أن ييأس من وصول الخطاب . فترك التفكير فيه مرغماً . وسار كاسف البال إلى الحقل يتلهى بمناظره . وجاء ميعاد البريد فلم يهتم له اهتمامه المعتاد كل يوم . . .

وإذا به يسمع صوتاً يناديه . فالتفت خلفه فرأى عبد المقصود يدعوه إلى المنزل حالا لأن الست تطلبه . فعاد محسن مسرعا وقلبه يدق حتى بلغ البيت ودخل فقابلته والدته بخطاب فى يدها وقالت له إن هذا له باسمه ولم تتم عبارتها لأن يد محسن امتدت إلى الخطاب فى حركة آلية عصبية فاختطفته . وما صار فى كفه حتى تمتم وهو ينظر إلى مظروفه :

— آه . . صحيح . . لى . . لى . .

ثم حمله فى يده دون أن يفضه وذهب به نحو الباب واختفى بأسرع من البرق تاركا والدته تنظر إلى ذلك حائرة دهشة . . .

وما صار محسن خارج البيت حتى وضع الخطاب فى جيبه وسار هنا وهناك كالمجنون وكأنما الدنيا تضيق به فرحاً . ثم أخذ يلتفت حوله باحثاً عن مكان منفرد بعيد يطالع فيه الخطاب . وخطر له أن يذهب إلى آخر الحقل عند مجرى الماء . . حيث الخضرة والماء وخطاب سنية . وفى الحال جرى وهو واضع يده على جيبه كأنه يحمل كنزاً يخشى سقوطه . حتى وصل إلى المكان الذى انتقاه . فجلس هنيهة على حافة الجدول . ثم نهض كأن البقعة لم تعجبه وجلس فى بقعة أخرى . ثم نظر إلى ما يحيط به من منظر . . متعمداً التريث والهدوء والتأنى . . غير أن قلبه كان يدق . وكأن شيئاً يدفعه دائماً إلى وضع يده فى جيبه و إخراج الخطاب . . وأخيراً فعل . ولكنه لم يفتحه . بل ظل يقلبه فى كفه . وينظر تارة إلى ختم البوسته وتارة إلى العنوان متمعناً الخط كل ذلك و يده ترتجف فرحاً . . وهو بين عاملين . الرغبة فى فض الغلاف فى الحال والرغبة فى التريث والاستمهال كأنما يريد أن يطيل فرحته باستلامه أو كأنما يخشى إن هو قرأه الآن أن تذهب لذته وشيكا بمجرد الفراغ من تلاوته . . وهكذا لبث تتنازعه الرغبتان وقتاً حتى تغلبت فى النهاية رغبة حب الاستطلاع . فجعل يفض الغلاف فى تأن وحذر خشية أن يمزق من ورقه أكثر مما ينبغى وكأنما

يضن بنطفة من ورق هذا الخطاب الثمين يرميها للريح وأخيراً أخرج المكتوب ونشره بين يديه وقرأ :

حضرة المحترم الأمجد محسن بك دام

من بعد مزيد السلام والسؤال عنكم وعن صحتكم وصحة سلامتكم التى هى عين المراد من رب العباد وصلنا عزيز خطابكم وعلمنا ما فيه من سؤالكم عنا وعن صحة سلامتنا . فأكثر الله خيركم ولا أحرمنا منكم أبداً . وأننا والله متشوقين عليكم جداً . فإذا كنت تحب عمتك يا محسن فلا تتأخر أكثر من ذلك عن الحضور إلى مصر قريباً إن شاء الله فان مصر بدونك مظلمة . وفى الختام أعمامك وكل من بطرفنا يهدونك أنت والبك الكبير والست الوالدة أزكى التحيات ودمتم بخير ما عمتك زنوبه

بهت محسن قليلا ووجم وأحس شيئاً من خيبة الأمل . وكان أكثر ما أدهشه وأبهته إغفال ذكر سنيه فى الخطاب . لكنه عاد فالتمس لها العذر قائلا فى نفسه إنها هى التى كتبت الخطاب وهى تعلم أن محسن يعلم ذلك فلا محل لذكر اسمها . . أو لعله الحياء منعها أولعها رغبتها فى أن تظل خلف ستار عمته زنوبه .

وعاد محسن إلى تلاوة الخطاب من جديد على أن كاتبته سنيه وعلى أنها إنما تخاطبه من وراء ستار . ولكن أى ستار ؟ ولماذا هذه اللغة المبتذلة التى جرت مجرى العرف والاصطلاح فى رسائل السوقة والتى لا يجرى بها إلا قلم كاتب عمومى أو « عرضحالجى » ؟ أفتراها قصدت المداعبة ؟ إن

سنية مداعبة لعوب حقيقة ولكنها أيضاً مهذبة متعلمة تقرأ القصص وتطالع الكتب فلا يعقل أن يكون هذا أسلوبها ! إنها إنما تداعبه . نعم هى دعابة منها . . لطيفة ! وسرعان ما ابتسم محسن ورجع يتلو الخطاب من أوله ويقف عند كل كلمة ضاحكا مسروراً معجباً بظرف معبودته . ولمع فى رأسه خاطر جعله يضاعف إعجابه بها . فقد وقعت عينه على الإمضاء فقال فى نفسه : نعم انه حسن ذوق . فما دام الخطاب من زنوبه فإنها اختارت أسلوباً يتناسق مع الإمضاء ومع جاهلة كزنوبه ! لا شك أن سنية جمعت ما بين الدعابة لتسره وتضحكه وبين السخرية لتهزأ خفية بزنوبه . ما أذكى فؤادها ، لا ريب انه لم ير ذكاء باهراً كذكاء سنيه .

غير أن محسن برغم كل هذا الذى استخرجه من الخطاب ظل قلق القلب . إنه كان يود أن تبثه بعض عواطفها نحوه . أنها نست أنه إنما يحيا هنا بذكراها وذكرى تلك القبلة المطبوعة على خده . ونست إنها مهما فعلت من أجله فان تزيل عنه القلق ولن تمنحه الراحة التامة والاطمئنان . إنه فى حاجة إلى عبارة تؤكد له بعض التأكيد وتريحه بعض الراحة وتطمئنه بعض الاطمئنان . .

فعاد يتلوه تلاوة أخرى ليستشف منه شيئاً آخر غير تلك الدعابة التى ليس فى حاجة إليها كبيرة . . . إلى أن بلغ عبارة « فإذا كنت تحب « عمتك يا محسن . . » الخ الخ

فوقفت عيناه عليها واحمر وجهه إذ بدا له أن هذه العبارة انما تعبر عن

عاطفة سنية التى كتبتها خلف ستار زنوبة . . نعم هو ذاك . وأنها لولا الحياء لقالت « فاذا كنت تحب سنيه يا محسن . . . » الخ الخ

دق قلب محسن سريعاً لهذا التخيل فتوقف قليلا وأرسل نظراته الحالمة إلى ماء القناة الجارى تحت قدميه وقد أحس لذة وسعادة ثم عاد إلى الخطاب بعد لحظة وأخذ يتمعن تلك الجملة الساحرة و يستنبط منها معانى جديدة . . و ينزل فى أغوارها يستعصرها عواطف مستترة . « فاذا كنت . . تحب يامحسن . .فلا تتأخر أكثر من ذلك فإن مصر بدونك مظلمة ! ! ! »

— صحيح ؟ ؟ مصر بدونى مظلمة ؟ ؟ فى نظر سنية ؟ ؟ !

هذا ما جعل يهمس به محسن لنفسه وهو كالمجنون فرحاً واختلاجاً .

وطوى الخطاب باعتناء تام بعد أن أدناه من شفتيه وقبله قبلات حارة ودسه فى جيبه بحرص . ثم نهض وقفل راجعاً إلى البيت وهو يشعر كأنه لا يسير على الأرض . . بل يمشى فى الهواء . . .

***

دخل محسن البيت فقابلته والدته سائلة عن الخطاب الذى أخذه الساعة وانصرف به . فقال لها إنه من عمته . وأدخل يده فى جيبه متردداً . ولاحظته والدته فمدت يدها إليه تريد الخطاب . ولعل ما ظهر لها من أمر محسن رابها قليلا . ولم يطل تردد الفتى فإنه أبرز الخطاب مضطراً إلى والدته وابتسم واحمر وجهه وقال فى بعض تلعثم :

— عمتى بتسأل عن صحتك وصحة بابا . . و بس ...

ثم فض الخطاب باحتراس وناوله لوالدته وهى تلاحظ تغير وجهه . فلما أخذت الخطاب وطالعته استغربت إذ لم تجد فى الخطاب شيئاً . وأعادته إلى الفتى وقد انفرج فمها عن ابتسامة . كأنما أدركت أن ما بدا من محسن ما كان سوى اهتمام صبيانى بخطاب أتاه باسمه . . مهما كان الخطاب فارغا وسخيفاً ...

ولاحظت كذلك عناية محسن بإعادة الخطاب داخل الغلاف ثم عنايته وتؤدته وحرصه وهو يضعه فى جيبه ثانية كأنما يضع شيئاً ثميناً فابتسمت ابتسامة أخرى . .

ولبث محسن هنيهة معها ساكتاً ، وكأنما لا يجد ما يقول لها . وأخيراً تحرك يريد الانطلاق من جديد إلى الفضاء ليخلو إلى نفسه . ولكنها استوقفته قائلة فى عتب :

— إنت يامحسن دايماً فى الغيط ! . . مش تقعد معاى شوية . . !

فرجع وجلس وهو يخفى تبرمه بابتسامة . .

واقتربت منه والدته . وكانت تحس دائماً أن ما يربطها بابنها إنما هى صلة تكاد تكون رسمية شرعية لا أكثر . .

وطالما رأت ذلك منه ومن نفسها . ولا تعلم إن كان السبب افتراقه عنها منذ سنين للالتحاق بمدارس مصر تحت إشراف عمه حنفى المدرس ؟ . . أو أن السبب اختلاف طبائعهما منذ بدأ الغلام يعقل .. وأنها ما كانت ترى منه اتفاقاً معها فى الميول .. وطالما رأته يؤثر الوحدة أو اللعب مع رفاقه الصغار

على الجلوس إليها . . . أو أن العيب عيبها هى وعيب طبيعتها المنصرفة عن الأمومة وشئونها إلى رغبات أخرى ومطامع . . . انها لا تدرى . . وكل ما حملها على التفكير فى هذا الآن إحساس بسيط غريب . . لعله شىء من الغيرة أو الأثرة وهى تلاحظ اهتمام الفتى بخطاب زنوبه . ذلك أنها قالت له بعد أن نظرت إليه طويلا:

— أظن يا محسن انت تحب عمتك اكتر منى ؟ ؟

فلم يجب الفتى . إذ كان ما يملأ فكره شيئاً آخر :

أن ينطلق إلى الغيط ويجلس هـذه المرة فى ظل الساقية الدائرة ويقرأ الخطاب من جديد ...

الفصل التاسع

لم يطق محسن صبراً عن مصر دقيقة واحدة بعد اليوم . وما الذى يبقيه هنا الآن وقد استلم الخطاب وقرأه مائة مرة حتى حفظه عن ظهر قلب ...

وأعلم والديه بعزمه على السفر و بميعاد سفره وأخبرهما متلطفاً عما ينبغى حمله إلى أعمامه من هدايا الريف . وأفهمهما فى كياسة أن يسخوا فى الهدية هذه المرة ، وكان يقصد فى نفسه بهذا أن يجعل عمته زنوبة تقتطع من الهدية جزءاً تهديه إلى سنيه . فما كان اليوم التالى حتى أخذ الكل يجهزون محسن للرحيل . فهيئت السلال و « الطرود » مملوءة من « برم » الأرز ذات الحمام والفراخ ومن الكعك و« المنين » و« البتاو » الفلاحى والفطير « المشلتت » يضاف إلى ذلك بلاصان من العسل النحل وصفيحتان من المسلى « وفردان » من الأرز ونحو خمسمائة بيضة .

وقد اصطفت هذه الهدية الوافرة صفاً طويلا جعل يتأمله محسن فى زهو وافتخار .

وجاء ميعاد الرحيل ولبس محسن بذلته وهو فرح مبتهج . إذ بعد ثلاث ساعات يكون فى مصر . نعم بعد ثلاث ساعات فقط يصير في منزل أعمامه الملاصق لمنزل سنيه . ولأول مرة ذكر محسن وأدرك أنه يسكن بجوار سنيه . لأول مرة أحس معنى هذا الجوار وقيمته . وكم من الحقائق تمر بالإنسان

فلا يراها ولا يدركها إلا بعد زمن . و بعد أن تغدو تلك الحقائق صوراً . . كأنما قدر للانسان ألا يرى من الحياة أيضاً إلا الأحلام والصور ! نعم إنه يقطن دائماً المنزل المجاور لمنزلها ولكنه لم يفطن ولم يقدر ذلك إلا اليوم وهو بعيد . . .

وكان عندئذ يضع طر بوشه أمام المرآة على رأسه وعيناه تائهتان تتأمل هذه الخواطر . فما وصل إلى ذلك الإحساس أن ما بينه و بينها ليس إلا الحائط بين المنزلين حتى شعر بالهناء يغمره ووقعت عينه على صورته فى المرآة فهش لها وأطال النظر إليها . ودخل عليه والده فجأة والساعة فى يده ينبهه إلى الوقت . فصحا محسن لنفسه مرتبكا بعض الشيء وجعل ينظر حوله كمن يتأكد أنه لم ينس شيئاً من حوائجه . ثم اتجه إلى الباب فى أثر والده .

وكانت والدته قد انتهت من الاشراف على نقل الأمتعة . وقد رؤى أن يسبق «العفش» محسن إلى دمنهور على عربة نقل يجرها بغلان . وأن يقفو محسن أثرها فى المركبة الفخمة بصحبة والده .

وأقبلت والدة محسن فالتفت البك إلى ولده وقال بلهجة سريعة :

— سلم على نينتك قوام الا مفيش وقت !

فتقدم الفتى إلى والدته فعانقته وأوصته بالمواظبة على المكاتبة . ثم التفتت إلى زوجها وسألته عما إذا كان قد أعطى محسن « مصروفه » فأجاب مسرعاً :

— فى المحطة .

فقالت له وهى تومئ إليه إيماءة مصطلحاً عليها :

— اعطى له بس زى ما قلت لك . إلا يروح يعطى الفلوس لأعمامه . .

فاستاء محسن ونظر إليها نظرة تأنيب . واحتج على قولها هذا قائلا إن أعمامه ليسوا فى حاجة إلى أخذ نقوده الخاصة . إنهم أطيب من ذلك قلباً . . . ولا يدرى الفتى لماذا أوجعته تلك الكلمة . . . ولا أى شعور بعثه على الدفاع عن أعمامه ورفاقه ؟ ولاحظ والده ذلك فقال فى هدوء بدون أن يغضب زوجته : إنه يرسل إلى حنفى افندى كل شهر مبلغاً عادياً فى نظير إقامة محسن عنده . . . وإن هذا المبلغ غير مبالغ فيه . . .

فقالت الست بلهجة جافة بعض الجفاف إنها تقصد القول بأن محسن لا يحب النقود ولا يهتم لها منذ صغره . وإنها ما زالت تذكر أيام الأعياد عند ما كانت تعطيه ريالا « عيديه » حاسبة أنه سينفقه مثل غيره من الأطفال فى شراء « زماره » أو « أمبوله » أو « شكولاته » . ولكنه ما كان يفعل شيئاً من ذلك . بل كان يلعب بالقطعة الفضية قليلا ثم يعود بها إلى والدته و يردها . . فتدهش وتسأله « جرى إيه يا محسن ؟ » فيجيبها : « خلاص » فتلح فى سؤاله متعجبة « خلاص إيه ؟ ! ؟ » فيقول لها : « خلاص لعبت به وشبعت . . . »

وسكتت الست قليلا . فقال لها البك :

— لكن محسن النهارده ما طلبش شىء زيادة عن المعتاد كل شهر .

فغضبت السيدة وقالت فى حدة و برود :

— طيب . . . طيب . . . عرفت ! هو أنا كفرت ! أنا قصدى تمشى بالحساب علشان بعد كده ما تقولش إن العزايم هى اللى ناهبه المصاريف . . .

* * *

جاء القطار وهجم عليه الخدم بالأمتعة « والطرود » وركب محسن وتحرك به القطار وأشار لوالده على الرصيف اشارة الوداع . ثم جلس فى مقعده وخلا إلى نفسه يحاول أن يستذكر أثر الريف فى نفسه أو على الأقل آخر صورة لوالديه اللذين فارقهما منذ برهة . غير أنه لم يجد فى رأسه الآن سوى صورة واحدة : مصر — سنية . ولا أثر فى قلبه غير أثر واحد : الخطاب الذى فى جيبه منها . هذا هو كل ماضيه . وكل مستقبله : سنيه . خلا ذلك فليس بنفسه شىء حتى الساعة كأنه لم يكن فى الريف . . . ولا شاهد شيئاً ولا لقى أحداً . كذلك لم يشأ محسن أن ينظر إلى المسافرين معه ولا إلى ما يجرى حوله . بل أخرج من جيبه الخطاب وأخذ يقرأه ويقرأه متأملا كل عبارة . . . حتى بلغ القاهرة والخطاب بيده . . .

كان والد محسن قد أرسل تلغرافاً إلى حنفى افندى عن ميعاد وصول القطار حتى يجد من ينتظره بالمحطة . فما كاد يقف القطار حتى نهض محسن ونفض عنه الغبار ثم أطل من النافذة ونظر إلى الرصيف فى سرور هائل كى يشير إلى عمه حنفى . . غير أنه لدهشته لم يجد فقط حنفى وحده بل وجد كذلك معه كل الرفاق . . . « الشعب » جميعه : عبده وسليم ومبروك

وحنفى . . . واقفون كلهم ينظرون إلى القطار الداخل عليهم يتبخطر . ومبروك بسذاجته المضحكة يرفع ذراعه فى الهواء ويشير اشارة طائشة إلى المركبة التى يظن بها محسن ولم يكن لمحسن الوقت الكافى ولا العقل الهادئ فى تلك اللحظة ليتساءل فى نفسه عن سبب مجئ الجميع لاستقباله ؟ أتراه الشوق إليه ؟ نعم إن الرفاق فى الواقع شعروا كأنهم فقدوا شيئاً بغياب خامسهم فما جاءتهم البرقيه حتى أسرعوا إليه فرحين ! . ولكن ألهذا فقط ؟ ؟ ! لم يعلم محسن إلا أنه سر برؤيتهم . وما كاد نظره من نافذة القطار يقع على مبروك وهو يشير ويتكلم على طريقته المعهودة حتى امتلأ قلبه ضحكا داخلياً . . . وشعر كأنما قد عاد أخيراً إلى مائه وجوه الذى يستطيع أن يعيش فيه . . .

الفصل العاشر

لم يكن المقام يسمح لمحسن بأكثر من تحية أولى سريعة . إذ أنه ذكر لهم ما معه من عفش كثير فأقبلوا برمتهم على القطار ومبروك فى مقدمتهم يحمل كل ما يستطيع حمله حتى بلغوا ساحه المحطة فأوفدوا مبروك يتفق لهم مع صاحب عربة نقل . وما انتهوا من وضع العفش والطرود عليها ومن وضع مبروك فوق العفش والطرود حتى قالوا للعربجى بعد أن أخذوا نمرته :

— سوق يا أسطى على شارع سلامه نمرة ٣٥ .

وقال اليوزباشى سليم :

— خد بالك كويس من العفش يا أسطى !

وقال عبده وهو يعد الطرود :

— حاسب يا أسطى إلا يقع منهم طرد فى السكه . !

وقال حنفى :

— ان تهت يا أسطى عن البيت اسأل ناحية السيدة ألف من يدلك

فأجاب العربجى وهو يجذب اللجام ويقولى « شى . . . شى يا بتاع الكلب ! » :

— ما تخفش أتوه ازاى مش بتقولوا شارع سلامه فى خط السيده ؟ !

فأضاف الرئيس حنفى مؤكداً :

— وقدام البيت قهوه . بس انت ما عليك يا أسطى إلا تسأل المعلم شحاته صاحب القهوة . . .

وهنا صاح بهم مبروك من فوق العربة محتجاً على إغفالهم وجوده :

— وأنا يعنى بلا قافيه على العربية بصفة طرد ؟ ! .

فضحك محسن . ورأى الحق فى جانبه والتفت حنفى إليه وقال فى لهجة الاعتذار :

— حقك علينا ياسى مبروك . . غلطنا ! سوق يا أسطى وإن تهت إبقى إسأل « الأفندى » إللى فوق العفش .

ورفع الحوذى يده بالسوط فسارت العربة تتهادى فى ميدان باب الحديد كالسكرى بحمارها ذى الخلاخل النحاسية ومبروك على قمتها يترنح من حركتها وينظر خلفه إلى الرفاق مبتسما وهم يشيعونه بأنظارهم . وجعل يلوح لهم بيديه أن اسبقوا أنتم إلى المنزل تواً .

واتجه الرفاق بعد ذلك إلا محطة الترام وركبوا إلى حى السيدة زينب وهم يسألون محسن طول الطريق عن أهله وعن دمنهور وعما رآه . وهو يجيبهم ناظراً إلى وجوههم وأصواتهم وكأنما يلاحظ فيها تغييراً قليلا ورنيناً غير مألوف . لكنه ليس يدرى بعد إن كان ما يلاحظ صحيحاً أو أنه خيال مسافر قادم . إنه يلمح على وجوههم مسحة من كآبة هادئة وفى أصواتهم

خفوتاً ثم كثيراً من الصمت كأنما هم لا يبطنون فرحاً ولا ابتهاجاً . ومع ذلك شيء عجيب . . إنه يحس ازدياد قربهم إليه ويشعر كأن كل ما يملكون من ابتهاج الساعة ، إن كانوا يملكون ، فانما هو لعودته .

لم يستطع محسن أن يناقش نفسه الآن وهو فى الترام فى كل ذلك . غير أن هذا كان شعوره المباشر عند لقائهم . وطالما بدا له فى الطريق أن يسألهم فى ذلك إلا أنه خشى أن يكون شعوره قد أخطأ وأن يكون كل هذا من تأثير المقابلة الأولى . ثم أنه كان منهم فى موقف المجيب على أسئلتهم والحاكى لأخبار الرحلة . . فلم يشأ تعجل الاستفسار منهم عما يريد أن يعلم . والوقت متسع أمامه . وهم أيضاً من جانبهم كانوا ساكتين عن إخباره بأمرهم كأنما لا يريدون التعجيل أو كأنما هم لا يريدون الظهور بمظهر الاهتمام بأخبارهم .

وبلغوا المنزل . وما وقع بصر محسن على الدار المجاورة واللوحة النحاسية المنقوش عليها اسم « الدكتور أحمد حلمى » حتى تغير وجهه ودق قلبه دقات سريعة . ولعل عبده وسليم كانا يرقبانه هذه اللحظة فقد تبادلا النظر واختلجا بشيء لا يعلم أحد أهو بعض الراحة أم بعض الرأفة . . .

وصعد الجميع السلم ومر محسن وهم يجتازون الطابق الأول بالشقة القاطن بها الجار مصطفى بك فابتسم وقد ذكر فى الحال عمته زنوبة . ثم التفت إلى أحد رفاقه وسأله عما إذا كان هذا الجار المثرى ما زال ساكناً هنا أم « عزل » ؟. فتبودلت النظرتان من جديد . ثم سمع سليم يجيبه بلهجة غريبة :

— ساكن ياسيدى . . .

ووصلوا أخيراً إلي طابقهم ودخلوا الشقة المعهودة فقابلتهم زنوبة مهللة مكبرة ترحب بعودة محسن وتسأله عن صحة والديه وتنظر إليه وتقول :

— إنت كنت عندنا محفض سمين . . .

ثم جعلت ترقيه وتدعو له الله وأم هاشم . . . ومحسن يجيل بصره في البيت يتعرف ما تركه منذ أسبوع كأنما مضى عليه عام . وينظر إلى المائدة الممدودة وسط الردهة ويستذكر اجتماعهم حولها . ثم مد رأسه لينظر حجرة النوم ذات الأسرة الأربعة المصطفة جنباً إلى جنب . ثم أدار رأسه يتفقد سلم السطح المؤدى إلى حيث التقى بسنية لأول مرة . ثم التفت إلى حجرة زنوبه « والشلتة الكرنبى » المفروشة على الأرض فوق الكليم الأحمر القديم حيث تجلس عمته ويجلس بجوارها يتحايل ويتخابث ليعلم منها أخبار سنية بدون أن يستثير ريبتها . كل ذلك رآه ومر بخاطره فى لمح البصر . ولم يجد شيئاً تغير عن ذى قبل لا فى نظام الشقة ولا فى الأثاث .

نعم لا شيء تغير . ومع ذلك فإن إحساساً دقيقاً يحدثه بأن شيئاً تغير . ولكن ما هو ؟ التفت محسن إلى وجوه رفاقه يستفسرها . . . لكنه ألفاهم ساكتين غامضين . . .

فالتفت إلى زنوبه فلم يستطع بادىء الأمر أن يقرأ فى وجهها شيئاً غريباً ولا أن يرى فى صوتها أو حركاتها ما يوحى إليه باحساس خاص . غير أنه لم يفته وقد أمعن النظر إلى عينيها أن يجد فيها شيئاً يتعارض وتلك

الابتسامة الفرحة وذلك الابتهاج الذى استقبلته به . نعم فى عينيها أيضاً تلك الكآبة . . ولكنها أرخت بصرها فى الحال إذ نظر إليها هذه النظرة الفاحصة ثم سألته عما إذا كان جائعاً . فأجابها أنه لن يأكل إلا مع أعمامه وعند حضور العفش لأنه يحمل إليهم « برم » أرز بالحمام والدجاج . فأظهر الجميع الابتهاج وهللوا لحظة وهشوا لذكر الحمام والدجاج . فقالت زنوبه لمحسن أن يخلع ملابسه ريثما يأتى العفش فذهب محسن إلى القاعة « العمومية » ذات الأسرة واقترب من الدولاب الكبير المشترك وفتحه وألقى نظرة على ما يحويه من ملابس مختلفة الأحجام والألوان تذكر بمعروضات سوق «الكانتو» ثم اتجه إلى سريره المجاور لسرير الرئيس حنفى وهو يفك أزرار ثيابه . فقال حنفى مرحباً باشا :

— أهلا بجارى !

وأومأ اليوزباشى سليم بيده إلى القاعة والأسرة ثم قال لمحسن ملاطفاً ولكن فى لهجة تشوبها رنة غامضة قلقة :

— رجعت « للعنبر » يا بطل !

فقال حنفى باسما :

— العنبر دلوقت كامل العدد .

ثم طفق يتحدث قائلا إنه كلما ذكر أن سرير محسن خال بدا له أن شيئاً ينقص . وهذا الشعور بالنقص كان يمنعه من النوم بعض الأحيان فضحك محسن والتفت إلى حنفى وقال :

— يمنعك من النوم مش ممكن ! مفيش حاجه تمنعك من النوم أبداً فاكر يوم ما نمت فى المحطه وضيعت لى القطر ؟ . .

والتفت إلى الجميع يريد أن يحكى لهم ما حصل كى يشركهم فى الضحك غير أن حنفى أومأ إليه إيماءة خفية متوسلا إليه ألا ينشر الخبر بين « الشعب » . . .

ودب الصمت بينهم لحظة قطعها عبده الذى لم ينبس بحرف منذ دخوله قائلا :

— مبروك غاب !

وحولت هذه العبارة أفكار الجميع إلى جهة أخرى فنهضوا ينظرون من من النافذة مجئ العربة التى فوقها مبروك . . ونزل حنفى من فوق سريره الذي كان جالساً عليه وهو يقول :

— لازم تاهوا ! هى ما دام فيها مبروك حاتوصل ؟ ! أنا أراهن إن ما كان وقع من فوق العربية والعربجى مش واخد باله وفضل سايق . ! .

وخطر لمحسن خاطر سريع فعدل عن خلع ملابسه وعاد « يزرر » سترته . . . ذلك أنه رأى الهدية عما قليل ستأتي وأنه قد يذهب للقاء سنية. نعم إنه يقوم المحال إذا ظن أنه يستطيع صبراً على رؤيتها حتى الغد . .

ما كاد محسن ينتهى من تنظيم هنـدامه حتى سمع رفاقه يصيحون فى النافذة معلنين :

— ظهرت !

ثم عقب ذلك لغط أثاره حنفى الرئيس وهو يزاحم الرفاق على النافذة ويضع منظاره على أنفه ويسدد عينيه إلى حيث نظر الزملاء ويقول مؤكداً بأن العربة ظهرت حقيقة عند آخر الشارع تهتز وتتراقص كالمركب الغرقى وهى تجتاز حفر ونقر الطريق ومن فوقها مبروك « يقب ويغطس » لناظريه عن بعد وهو تارة تظهر منه يد أو ذراع يشير للعربجى إلى المنزل وتارة يظهر منه نصفه الأعلى كله وقد احتضن طرداً صغيراً . . .

وبلغت العربة المنزل أخيراً ووقفت ببابه فاقترح عبده أن ينزل الجميع لمعاونة مبروك فى إصعاد العفش . وما كاد يقول حتى اتجه إلى باب الشقة وأخذ ينهب الأرض نهباً وباقى الشعب فى أثره بما فيه «الرئيس الشرف» ولاحظ محسن نشاط حنفى أفندى العجيب وهو ينزل السلم مستعداً للعمل فضحك فى نفسه وقد أدرك السر : « والله ما حرك العم حنفى اليوم إلا برم الأرز ! » وكانت زنوبه وقتئذ فى حجرتها تنتظر فراغ محسن من خلع ملابسه فلما سمعت جلبة الجميع فى السلم خرجت إليه وأشرفت عليهم من عل وسألت عن الخبر فأجابها الرئيس حنفى فى اغتباط ساذج وهو يدافع منكب سليم على الدرجة الأخيرة من السلم :

— العربية جت . حضرى القصع والحلل والصوانى !

ما مرت عشر دقائق حتى صفت الطرود فى ردهة المائدة واجتمع الشعب بأكمله بعد أن صرفوا الحوذى وعربته . وتقدمت زنوبه وقد فوضوا إليها الأمر فى فتح الأشياء وتوزيعها وحفظها والتصرف فيها بمقتضى الحكمة والعدل

فتناولت سكيناً وجعلت تقطع وتفك أربطة السلال وتخرج ما فيها من الكعك المسمى « منين وبتاو وغريبه » في طشت غسيل كبير . .

بينا مبروك ينظر إلى حركة يدها المتنقلة بين السلة والطشت ثم يحدق فى البتاو ولعابه يسيل . وأخيراً تجرأ وقال ولم يطق صبراً على الانتظار :

— أما أقول لك ياست زنوبة ! صلى على النبى . . .

فلم تجب زنوبة وظلت منهمكة فى عملها لا تلتفت إليه . فسكت قليلا على مضض ثم تردد وتنحنح وتقدم إليها أخيراً قائلا :

— أنا ما ليش دعوه بكم بلا قافية ! أعطينى أنا منابى وقولى لى روح فى داهيه . . .

فرفعت رأسها شزراً دون أن تنقطع عن عملها وقالت :

— النبى تتلهى . . !

غير أن عبده رأى الحق فى جانب مبروك . فاقترح أن يعد البتاو كله ثم يقسم بينهم بالتساوى فلا يأخذ فرد من الشعب بتاوة واحدة أكثر من رفيقه وأن ينطلق كل بنصيبه يصنع به ما شاء . . ويكون كل حراً فى أن يأكل نصيبه بأكمله فى يوم واحد أو على أيام ، فأعجبت الفكرة الجميع وصاح الرئيس حنفى متحمساً :

— أهو دا العدل !

فأذعنت زنوبه وأخذت تعد البتاو والمنين توطئة لتوزيعه بين الجميع

بالتساوى . ولكن محسن ذكر أن سنية لها قسط من الهدية فارتبك وتحير وأخيراً تشجع وقال فى بعض اضطراب :

— أظن واجب ياعمتى تبعتى شوية لبيت الجيران . . . إلا طبعاً هم عارفين إنى جيت من الأرياف ومعايه . . . وغص حلقه بباقى الجملة إذ لاحظ فى وجوه الرفاق و بالأخص فى وجه عمته تغيراً فجائياً عجيباً . وتمتمت زنوبة بلهجة فيها رائحة الاستنكار :

- الجيران ؟ !

فأحس محسن انقباضاً فى صدره . والتفت إلى الرفاق يستجليهم الأمر فألفاهم متبرمين متوجسين كأنهم ما كانوا يريدون التعجيل بتعكير صفوهم فى لحظة كهذه ... ولمح سليم لأول مرة منذ قدومه يفتل شاربه المعهود غير أنه فى هذه المرة يفتله فتل ساهم « مكبوس » لا كما كان قبلا فتل تعاجب وخيلاء . ولاحظ كذلك لأول مرة أن شارب سليم قد تغير . . لم يعد بعد ذلك الشارب اللامع « الزنهار » بل غدا متهدل الأطراف مسدولا كأنما كف عن استعمال « الكوزماتيك » منذ زمن طويل . والتفت إلى عمته زنوبه فرأى شفتيها تهتزان وترتجفان كأنما تريد أن تنفجر بكلام . . . وقد سكتت يداها عن العمل : فلما رأت صمت الجميع تجرأت ورددت فى لهجة نارية :

— جيران ! مين هم الجيران دول ؟ ! !

شعر محسن كأن مصيبة تتهيأ وتتكون لتنقض على رأسه . فنظر إلى

رفاقه بأعين زائغة . وعندئذ رفع عبده رأسه وأشار بيده لزنوبة إشارة عصبية وقال فى صوت جاف مغضب :

— أسكتى دلوقت مفيش لزوم . ! .

ولكن زنوبة كان يكفيها أن تلمس فى هذا الموضوع لينفغر فمها بالكلام الذى لم تنقطع عنه منذ أسبوع . وكانت كلما تكلمت فيه تحس أنها تشفى غلتها . . . لذلك ما التقت بأحد من معارفها القريبين أو البعيدين إلا قالت له هذا القول الذى صاحت به الساعة :

— جيران مين دول يا ادلعدى ! بيت الدكتور حلمى أبو قرنين ! بيت سنيه الشرموطه ! ... غير أن عبده ارتعد غيظاً وصاح بها :

— قلت لك اسكتى . . . كفاية تشنيع . . .

وقال سليم متكلفاً عدم الاكتراث وهو يفتل شاربه بكبرياء المدحور :

— مفيش لزوم نهتم بمسألة زى دى ! مهمة قوى يعنى ست سنية بتاعتك أنا والله عمرى ما نزلت لى من زور . . .

فحدجه عبده على الرغم من هياجه العصبى بنظرة ساخرة وكأنه يقول له : « الثعلب من عجزه قال إن العنب حصرم » !

وأشارت زنوبة بيدها إلى عبده وسليم كأنما تقول لهما أن يتركاها وشأنها وهى تصرخ :

— يوه ! مش أقول لمحسن على اللى جرى ؟ !

نعم تقول لمحسن عما حدث فى غيابه لو أن محسن الساعة من الأحياء .

أو ممن تسمح له حالته بالاستماع ، فان محسن ما كاد يتلقى فى صميم قلبه عبارتها « سنية الشرموطه » حتى بهت لونه وبرد جسمه وذهل عن كل شىء حوله وأمسك بطرف المائدة يتقوى بها على الوقوف وقد حدق « بالمشمع » الباهت القديم المفروش عليها وتحجرت نظراته ولم يعد يسمع شيئاً من تلك الجلبة والثرثرة والصراخ والتهويل الذى كانت تثيره زنوبه فى المكان بقصتها الطويلة المفصلة عما حدث فى هذا الأسبوع المشئوم . . .

الفصل الحادى عشر

لم ينم محسن تلك الليلة إلا نوماً متقطعاً لا فائدة منه للجسم . ولقد كانت أحياناً تأخذه الأغفاءة من تأثير تعب هذا النهار المملوء سفراً وغماً فيدب النوم فى مفاصله ويهمد كل شىء فيه ولكن ذلك الهمود والنوم العميق ما كان يدوم غير دقائق و إذا شىء كالصفير المستطيل أو الصراخ الحاد يخترق طبلتى أذنيه ويتبينه فإذا هو صوت يقول :

« سنيه الشرموطه ! سنيه الشرموطه ! . . »

فما أسرع ما يطير النوم ويحس كأن قلبه قد خطف أو سقط من بين قدميه وغاص فى الأرض . فيفتح عينين متسعتين حمراوين من الأرق . وعندئذ يستعرض ما وقع هذا النهار ويستذكر زنوبه وملامح وجهها المتقلص غيظاً وهى ترغى وتزبد ساردة ما حدث قائلة له فيما كانت تقول وهو لا يعى إلا نصف وعى :

— من يوم سفرك يا محسن وهى تشاغله من البلكون . . ! !

ثم قولها بعد ذلك إن ليت الأمر اقتصر على مجرد المغازلة من الشرفات. فان ما بينهما الآن قد وصل إلى حد تبادل المكاتبات والمراسيل وما يمضى يوم دون أن ترى جارية سنية ملتفة فى ازارها تجىء خلسة إلى مصطفى بك وتظل فى مسكنه « بالشقة » السفلى مقدار ما تسلمه الرسالة ويدفع هو إليها الرد . .

إنها تكتب إليه ... تكتب إليه رسائل وخطابات كل يوم . . . ! ! !

ومحسن الذى كان ينتظر خطاباً واحداً منها فى دمنهور ! ! . . .

وعندئذ ذكر تلك الحقيقة التى سودت الدنيا فى وجهه . ذكر الخطاب الذى جاءه بالغربة وحفظه عن ظهر قلب وذكر قول زنوبه عند ما صحا لنفسه وتجلد وسألها :

— أمال يا عمتى الجواب اللى وصلنى منك مين كان كتبه لك ؟ مش سنية ؟ ؟

فكان جواب زنوبه :

— سنيه ! ! . هى فاضية لنا والا فاضية للراجل الفلاتى الخباص اللى تحت ! ! .

فتمالك الفتى كل قوته الخائرة وسألها أيضاً فى يأس :

— مين بس اللى كتبه ؟ ؟

فأجابت :

— كتبه العرضحالجى اللى قدام محكمة السيده . . .

— عرضحالجى ! . .

نعم لم يكتف غيظ زنوبه وحقدها بفضح سنيه والتشهير بها عند الناس بمناسبة وغير مناسبة . بل دفعها الغيظ والحقد إلى الذهاب إلى عرضحالجى محكمة السيدة زينب تستكتبه خطاباً غفلا تبعث به إلى والد سنية الوقور كى تفضح البنت عند أبيها وتثير فى بيتها عاصفة . . . كل ذلك لأن

مصطفى بك علق بسنيه ولم يلتفت إليها هى البادئة بمغازلته . لهذا غدت سنيه لديها « شرموطه » وغدا مصطفى بك « رجل فلاتى خباص » ! هكذا كان الغرض الأصلى من ذهابها إلى كاتب عمومى محكمة السيدة . وانتهزت فرصة وجودها عنده لتستكتبه « فوق البيعة » خطاباً صغيراً ترسله إلى محسن . . .

هذه هى حقيقة الخطاب العزيز الذى يحفظه محسن عن ظهر قلب كما وضحت لعينه الآن . أى أن سنيه لم تخط إليه كلمة واحدة ولا علم لها بشىء عنه ولا يهمها إن كان حضر أو لم يحضر . . .

لم يطق محسن تلك الفكرة واستوى فى سريره كأنما استقبل طعنة باغتة وجعل يضرب رأسه بيديه كمن يريد أن ينهى حياته وما فائدة حياته الآن ؟ ماذا يصنع بها وهى خالية من . . .

لم يجرؤ على ذكر اسمها بل لفظ آهة كادت ترن فى الغرفة لو لم يكتم فمه باللحاف ثم نظر حوله فى قلق فألفى الجميع نياماً وجاره حنفى يغط فى سريره غطيط خلى الفؤاد و باقى الشعب يرقد هادئاً لكنه هدوء المستسلم المذعن . فهل يستطيع أن يذعن هو أيضاً وقد فقد من الحياة كل شىء . لماذا ينام ولماذا يصحو غداً ؟ . .

وغطى وجهه وجسده باللحاف وقد تفصد جبينه عرقاً وجعل يدعو الله فى حرارة أن ينام فلا يصحو إلى الأبد . . . وأغمض عينيه بعزم عصبى جنونى كأنما يريد أن يقنع الله بقوة إرادته وظل لحظة ينتظر الموت

ويستحثه حتى وافاه . . . النوم فنام نوماً عميقاً رأى فيه حلما هو أجمل ما حلم فى حياته : رأى أول الأمر كأن كل ما سمع البارحة عن سنيه كذب واختلاق وأن مصطفى بك قد غادر المنزل والحى ومصر كلها وذهب إلى أرضه بالأقاليم حيث تزوج ابنة أحد الأعيان من أقاربه . وأن محسن لبس بذلته الجديدة وذهب إلى سنيه بالهدية التى جاء بها فاستقبلته من أعلا السلم بملابس خضراء حريرية تتبرجرج كأنما نسيم خفى يهزها ومدت ذراعها إليه وقبلته قبلة على خده الأيمن أحس معها أريجاً يملأ أنفه لا يدرى أهو أريج يعطر ثيابها أم ان المكان كله يتضوع بعطر جميل . ثم رنت إليه بأهدابها السوداء الطويلة رنواً انتهى بارتخاء تلك الأهداب كأنها أطراف مروحة دقيقة من حرير هبطت على صفحة خدها . وجعلت تداعب أزرار سترته ولا تنظر إليه كأنما تعتب عليه . وأخيراً سمعها تهمس إليه : « مش قلت لك إن كنت تحبنى ما تتأخرش عن مصر أكتر من كده ؟! » . فأفاق محسن من نشوة القبلة قليلا وقال لها إنه لم يتأخر وإنه ما كاد يستلم خطابها العزيز الذى يحفظه فى صدره دائما أينما ذهب .. ما كاد يتلوه ويتلوه حتى عزم على الرحيل وحزم أمتعته وأتى مصر . . . فبدا كأنها اقتنعت نصف اقتناع . وأخيراً قادته إلى حجرة البيانو وضربت له بأناملها الرشيقة . ودخلت الجارية تحمل أكواب الشربات الأحمر . وما كاد محسن يرى الجارية حتى ارتعد قليلا لا يدرى لماذا . ولكنه شرب هنيئا وخرجت الجارية وهو يتبعها بنظرة خائفة . ثم التفت فجأة إلى سنية فألفاها ترنو إليه

خلسة ذلك الرنو الطويل . فما رأت نظرته تباغتها حتى ارخت عينيها بأهدابها الطويلة السوداء وسكتت . فخفق قلب محسن وسكر .. ونهضت سنيه بغتة وقفزت إلى البيانو تريد أن تضرب له شيئا آخر بعد أن تأوهت فى رقة وابتسمت له فى سحر وقالت بصوت الهامس وهى تعود إلى الرنو اليه :

— آه يا محسن لو كنت صحيح تحبنى قد ما أحبك !

لم يدر الفتى ماذا يجيب . ولعله لم يقدر على الجواب .

فإنه ذهل حتى عن نفسه وعنها ولم يدرك إلا شيئا واحدا : أن كنوز الأرض كلها وكنوز العوالم الأخري لا تساوى عنده ما ظفر بهذه الجملة الصغيرة . وأن السعادة .. السعادة التى يصفونها ولا يدركونها ها هى يلمسها بيده .. بل ها هى ملء كفه وها هو يضعها فى جيبه بل فى قلبه . إنها تملأ قلبه على سعته . بل تثقله كأنما هى من الذهب الأبريز هذه السعادة . نعم إنها تثقل جسمه أيضا الآن . . إنها تتمشى فى جسمه كله الآن متدفقة . ويحس جسمه يحشى بها حشوا كما تحشى زكيبة بالذهب . وها هو يكاد يخنقه الفرح . تخنقه السعادة . إنها بلغت حلقومه . . إن الفرح سيخنقه إن لم يفض قليلا والسعادة تكاد تثب من فمه . إنها تنفخ صدره وبطنه باحثة عن منفذ . نعم إنه فى حاجة إلى أن يقئ بعضا منها . نفسه تضيق . ما أثقل وزن هذا الذهب على صدره !

وتقلب محسن فى فراشه باسم الثغر مفتوح الفم يلهث من عبء السعادة ويريد أن يفعل أى شيء . . أن يجري . . أن ينهض يخبر . . يخبر الناس أن يتكلم . . أن يثرثر . . أن يقفز . . أن يتمرغ فى التراب . أن يتدحرج

على الأرض . وهذا الشيء الأخير هو الذى . . هو الذى استطاعه محسن وعمله فعلا : أن تدحرج على سريره دحرجة انتهت برأسه إلى حافة السرير ففتح عينيه فاذا رأسه تطل من الفراش على أرض الغرفة وفمه مفتوح كمالو أنه يقيء .

وكانت تباشير النهار قد ظهرت من النافذة . وأول شعاع من الشمس يتسلط على « الدولاب » الكبير المشترك .

وفجأة ذكر محسن المسكين كل شيء .

وعادت إليه الحقيقة برمتها وقسوتها وعلم أن سعادته حلم . ولم يبق منه شيء . لقد قاءه واستفرغه من قلبه كله الآن عند طلوع النهار . ولم يفضل له منه نطفة يتغذى بها ويحيا . واسودت الغرفة في عينيه من جديد ونظر إلي قرص الشمس وقد ظهر كله فخيل إليه إنه قرص اسود . اسود من الأبنوس . . واسود من شعر . .

إن الشمس لا تلقى على العالم نهاراً و بياضاً . . بل سواداً . . سواداً

وذكر أنه طلب الموت فى الليل خوفا من هذا النهار فأعطاه الله بدل الموت حلماً لذيذاً . كى يزيد عذابه عند ما يصحو وتبدو له الحقيقة ومرت بمخيلته صورة سنية فى ذلك الحلم الجميل والقبلة والرنو والأهداب . ثم سنية الآن التى لا تعرفه . المشغولة بحبها لمصطفى والتى لا تعلم ولا تريد أن تعلم حتى بحضوره . وتجسم لديه هذا الفرق الهائل بين الحلم واليقظة فجأر فى نفسه كالمذبوح ودس رأسه تحت الوسادة وهو يزفر متوسلا إلى ربه فى عتب مؤلم:

« حرام ! . حرام ! . حرام . . »

الفصل الثانى عشر

مر بخاطر محسن أن « الشعب » عما قليل يستيقظ ويراه على تلك الحال فأسرع بالنهوض وارتدى ملابسه فى بضع دقائق ثم خرج من المنزل قاصداً مدرسته بدون أن يتناول طعام الأفطار . واجتاز فى طريقه باب الدكتور حلمى فأطرق فى ألم ولم ينظر إليه . ومر تحت تلك الشرفة المشهورة فلم يرفع إليها رأسه كأنما لم يعد يملك حق امتاع نظره حتى الى شرفتها الخشبية التى طالما وقف فيها بجانبها وأطل منها معها يشاهدان الشارع والقهوة الصغيرة المواجهة . وهنا فجأة تذكر آخر يوم رآها وقد ذهب اليها يودعها قبيل سفره الى دمنهور وكيف أنها حقيقة كانت ترمق القهوة فى اهتمام أوجسه وأدخل فى نفسه الشك . ذلك أن مصطفى بك يومئذ كان جالساً على الرصيف يخالس هو الآخر شرفتها بالنظر .

إن قلبه فى ذلك اليوم حدثه بشر ولكنها عرفت كيف تبدد ريبه وأبدت له ما جعله أسعد إنسان يومئذ . نعم تلك القبلة التى ما زال يحس طابعها على وجهه . أتراها كانت ماكرة تتخابث عليه . وهذه الدمعة التى ذرفتها له ألم تكن صادقة خالصة ؟ لا يمكن ذلك . إنه لا يتصور انها كانت تخادعه . ليكن من أمرها الآن ما يكون فانه لا يستطيع أن يرتاب لحظة فى نبل خلقها . اذن ما الذى حدث ما الذى غيرها عليه بهذه السرعة ؟

عندئذ بدت لمحسن فكرة ومضت فى قلبه ببريق أمل : لماذا يحكم عليها من قبل أن يراها ؟ ولماذا لا يذهب اليها يستفسرها لعلها تكذب كل أو بعض ما سمع . أو لعلها إذا رأته تذكر وتندم أو ترفق أو . .

نعم ليذهب . وتنفس ببعض الراحة لأول مرة منذ علمه بكارثته غير أن هذا البريق لم يلبث أن محته سحابة سوداء . سرعان ما تكونت . ما أبسطه غلاماً ! أهو يظن سنية اليوم مثلها بالأمس . وهل بعد هذه الصلة الوثيقة بينها وبين مصطفى ورسائل الحب يستطيع هو أن يطمح فى شىء أو أن يتوهم أى حق له عندها . حتى ولا حق الزيارة المجردة .

ثم شىء آخر : كيف يذهب و بأى حجة ؟ والعلاقات الآن مقطوعة بين المنزلين . قطعتها عمته زنوبه بغيرتها !

إن سنيه الآن غدت أبعد من كواكب السماء .

وهكذا سار فى الطرق يتخبط بين تلك الخواطر المتضاربة . يخرج من أمل ليدخل فى يأس دون أن يترك له القدر إحدى الراحتين حتى بلغ أخيرا المدرسة ودخل فناءها مطرقا . فانتحى ناحية بعيداً عن التلاميذ كى ينقطع لنفسه الى أن يدق جرس دخول الفصول . وكان بين آن وآخر يرفع رأسه ويلقى نظرة على تلك الزرافات من الطلبة المجتمعة فى حلقات عدة . كل حلقة تجمع فئة من الاخوان يتضاحكون ويتمازحون ويقصون ما رأوا من غريب وطريف أثناء العطلة أو يسردون ما فعلوا أثناءها وكيف قضوها . وكان غالبا ما يتوسط كل حلقة تلميذ لعله أكبر الباقين سناً أو أذكاهم

فؤادا أو أظرفهم حديثاً وأفكههم نكتة هو الذى يدير دفة الكلام ويقص ويحكى والجميع يصغون اليه ضاحكين مستحسنين مسرورين بكل كلمة يقولها. وذكر محسن انه كان دائماً بين تلاميذ فصله ذلك المعبود اللذيذ الذى كانوا يحيطون به مستمعين وعن يمينه صديقه وأمينه عباس الذى يمده بقوة الثقة والإيمان والتصديق الأعمى والتحمس المطلق لكل ما يقول .

وذكر محسن فسحة الظهر التى كان هو وعباس والملتفون حولهما ، يشغلونها بمطارحة الشعر بجوار جدار المدرسة تحت السلم الكبير حتى إذا ما فرغت جعبتهم من الشعر انقلب محسن خطيباً مفوها يتبارى بالطلاقة والتمثيل وحسن الإشارة فى هذا الجمهور الصغير من المعجبين وحانت منه التفاتة إلى مكان الجدار تحت السلم فألفى دهشاً رهطاً من تلاميذ فصله بينهم عباس ، وكأنهم بما يبدو على وجوههم من كثرة التطلع جهة باب المدرسة ينتظرون أحداً . ومن عسى ينتظرون الساعة غير محسن ؟ ولكن ما الذى يستطيع محسن أن يقوله لهم اليوم ؟ هو الذى تركهم قبيل العطلة على أهنأ ما يكون إنسان . وها هو اليوم يعود اليهم بعدها إنساناً آخر . وخشى أن ينتهى بهم الأمر أن يلمحوه فانتقى مكاناً قصياً ومكث به حتى دق الجرس واصطفت التلاميذ صفوفاً فى فناء المدرسة وتحرك « الطابور » قاصداً الفصول . وعندئذ جرى محسن مسرعاً والتحق بذيل صفه دون أن يشعر به أحد حتى دخل الفصل آخرهم فالتفتوا فعرفوه وصاحوا به وأقبل عليه عباس مهرولا ومحسن يتكلف السرور والابتسام ويحاول مضاحكتهم

ويدعو الله فى نفسه أن يعجل بمجىء المدرس حتى يوفر على نفسه مؤونة التصنع ويسكت الفصل عنه . ولم يلبث المدرس أن حضر وترك التلاميذ محسن يذهب إلى مكانه . ووقف الكل احتراماً للمدرس . غير أن عباس الجالس خلف محسن لم ينفك يغمزه بذراعه ويحثه على مكالمته غير صابر حتى انتهاء الحصة . ومحسن يتغاضى عنه فى رفق حتى بدأ المدرس يلقى درسه وسط الهدوء التام . وكان هذا الهدوء التام خير بيئة منعشة لأفكار محسن وخواطره . فسرعان ما غرق فى بحار نفسه ونسى الحصة والدرس والمدرس . وأخذ المدرس يناقش تلاميذه فيما ألقاه حتى أتى دور محسن . ولمحسن حتى اليوم مكانة عند الأساتذة كما عند أقرانه . فهو معروف بالجد والذكاء والالتفات ، فما كاد يسأله المدرس اليوم فيما ألقى حتى تبين فى الحال عدم وعيه لشىء مما قيل الساعة . فدهش أستاذه وعجب أن يكون هذا من محسن . وسأله مستغرباً مستنكراً :

— جرى إيه يا محسن ؟ انت كنت سارح فى ايه ؟

فأجاب الفتى وقد هب واقفاً متلعثماً كالصاحى من نوم :

— ولا حاجة يا أفندى ! . . ولا حاجه . . .

ولطف المدرس من لهجتهِ وقال :

— الطالب يرجع من الأجازة نشط منشرح منتعش مستعد للدرس .. مشتاق للتحصيل . . . والا ايه يا محسن . ؟ ؟

فأطرق الفتى خجلا مرتبكا متألماً وقد نظر اليه الفصل بأكمله . وسمع عباس خلفه يهمس ، كالرائى له أو الحزين المغضب الذى لا يود حدوث ذلك لصديقه الذى يقدسه ويعتقد فيه العصمة والكمال . وكان هذا ما أوجع محسن فجلس مهموما يائسا . ووطن العزم على الالتفات إلى الدرس ما دام فى الفصل وسلط إرادة قوية فى حركة عصبية ، قانطة على عضلات عينيه ففتحها واسعة ونظر إلى « التختة » نظرات ثابتة طويلة وجرد فكره للانتباه إلى المدرس وحده مهما كلفه الأمر . . . ومكث يجاهد من أجل ذلك وملامحه متقلصة والعرق يتصبب منه .

* * *

لم تفد إرادة محسن شيئا . ولم يستطع المسكين التغلب على فكره الشارد فقد كان ذلك أقوى منه . ومضى النهار وانصرف التلاميذ وانصرف هو مطرقا يجر أذياله بعد أن ترك أثراً سيئا فى نفوس أساتذته وأغلب رفاقه . إنهم ولا شك يستغربون أمره وما دهاه . وكان استغراب صديقه عباس بالغا النهاية ، خصوصا عند ما اقترب منه يخبره أن والده للأسف لم يوافق على التحاقه بالقسم الأدبى ، وأنه لذلك مضطر إلى مخالفة عهد محسن . وكان عباس يتوقع غضب صديقه أو كدره وحزنه على الأقل . ولكن كم كانت دهشته إذ رأى محسن لم يتحرك للخبر ولم يبد على وجهه أى اهتمام . .

* * *

لم يكن فى رأس محسن غير شىء واحد : هذه الحياة التى أصبحت فارغة أمامه كيف يملؤها ؟ والمستقبل الفسيح والأيام الطويلة الآتية بأى صبر يستطيع اجتيازها . ؟ . وسمع فى نفسه هازئا يجيبه فى سخرية :

- وقبل أن تحب ماذا كنت تصنع ؟ عد كما كنت قبلا . . .

فابتسم الفتى ابتسامة مرة ونظر إلى السماء نظرة الساخط الثائر ، وكأنه يقول صائحا فى أعماقه : أرجع إلى ما كنت قبلا ؟ نعم إنى عشت من غير حب وعشت سعيداً . ولكنها سعادة الأعمى الذى لم ير الجمال ولم ير النور ولم ير الحياة . ولكنك فتحت أعين الأعمى وجعلته يبصر وينبهر فهل تحسبه إذا أرجعته بعد ذلك إلى ظلامه الأول مستطيعا أن يجد سعادته الأولى ؟ !

ورأى محسن نفسه فجأة فى ميدان السيدة فارتعد إذ ذكر أنه مضطر للعودة إلى المنزل حيث يجلس إلى أعمامه الرفاق وعمته وسيدركون ، ولا شك من وجهه ما به . فوقف متردداً لا يدرى ما يصنع . وإذا بغتة نظره يقع على دكان حلاق السيدة زينب ، وفجأة اصفر كالأموات ومكث بلا حراك ، ذلك أنه لمح مصطفى بك خارجاً منه و « البودرة » البيضاء لا تزال تزين ذقنه . . . وشاربه الأشقر الذهبى الصغير مقصوصا على الطراز الأخير وهو يختال فى بذلة جميلة وبيده منديل حرير فى لون البذلة يضعه فى رشاقة فى جيب الصدر الأيسر مظهراً طرفه وعلى وجهه البسطة والانشراح طافحان . . .

واسود الميدان فى أبصر محسن ، فلم يشعر إلا أنه اتجه إلى المسجد وفى قلبه شبه هلع أن يكون هذا الرجل قد رآه ، وخلع نعليه بسرعة وارتجاف وسار على بساط الجامع حتى بلغ المقام فانزوى فى ركن من أركان الضريح المظلمة التى لا يأتيها النور إلا من « نجف » كبير يتدلى من أعلى تلك القبة الفخمه الشاهقة . . وتناول محسن بيده قضبان الحاجز النحاسية ، وجعل يهمس ملهوفاً من صميم قلبه بصوت عصبى متقطع :

— يا سيده زينب ! يا سيده زينب ! يا سيده . . زينب . . !

وانفجر باكياً وتساقطت دموعه على بساط المقام وهو يكتم شهقاته فى صدره حتى لا يسمعها الزوار حوله . . .

الفصل الثالث عشر

فى نفس الساعة كان عبده فى مدرستة أمام لوحة الرسم يشتغل بتصميم هندسى مطلوب منه . والواقع أنه من يوم حكاية سنية قد تحول يأسه إلى عمل فاتجه إليه بكليته لايعكر عليه سوى صورة مصطفى كلما مرت بخاطره . لهذا ما كان يطيق أن تذكر أمامه تلك الحكاية ولا أن يلفظ اسم مصطفى . فقد كان يشعر عندئذ أن عزته قد ذلت فيعتريه هياج ويصيح بمن فتح الموضوع أمامه :

— اقفلوا الموضوع ده ياناس ! دماغى وجعنى ...

ثم يترك المكان فى الحال بحركة عصبية ...

انه حتى آخر لحظة ما كانت تسمح له كبرياؤه أن يتصور سليم الدعى « الفشار » جديراً بالفوز عليه . وبرغم ما حدث يوم إصلاح البيانو وما قاله وادعاه سليم فما كان ذلك ليقنع عبده أما الغلام محسن فهو أصغر من أن يحسب له حساب . ولبث على هذا التصور إلى يوم أن ظهر فى الميدان الشاب الثرى الجميل مصطفى بك ... فانهارت ثقته بنفسه بعض الانهيار وظل يرغى فى نفسه ويزبد متوعداً دون أن يستطيع تنفيذ وعيده . إنه تنقصه

عاطفة الشر الحقيقية . وأن كل هذا الزبد الطافى لا يخفى إلا ماء صافياً . وانتهى به الأمر أن انكب بعد أيام على العمل متناسيا بقوة إرادة عصبية صارمة .. وانقلب هزؤه بسليم عطفاً وتضامناً كما كان الحال بينهما قبل التنافس والتزاحم . غير أنه برغم كل ذلك مابرح يحس كأن شيئاً من النور فى نفسه قد أطفىء .. وأن لا العمل ولا سواه يستطيع أن يعوضه عن ذلك الأمل الحلو والقليل من الخيال الجميل الذى كان يرقق حياته الجافة الصلبة ..

وخطرت له الساعة صورة سنية فلم يتمالك أن رمى بالقلم من يده وترك اللوحة وخرج ساخطاً يسير فى حدائق الجيزة المحيطة بالمدرسة . وقد أدرك أن حياته ينقصها شىء . أدرك ذلك بأحساسه العميق الخفى فقط دون أن يجسر العقل ولا الفم على القول بذلك . لهذا عزا ضيقه وسخطه وخروجه إلى الحدائق على هذا النحو إلى شىء آخر نفاقاً منه وكذباً على نفسه ، فلقد مشى يقول لنفسه هائجاً ثائراً متبرماً :

— اف ! .. الشغل .. الشغل .. الشغل ! .. مفيش فى الحياة غير شغل ! خلقنا بس للشغل .. زى الحمير ! ..

ومر بحقل أخضر مزروع خساً . وامتلأت عيناه بالاخضرار فارتعد . وذكر فى الحال يوم ذهب إلى بيت الجيران لإصلاح أسلاك الكهرباء فرأى سنية تهف بين ان وآن أمام ناظريه بثوبها الحريرى الأخضر .. وكيف كانت كأنها تبدى له نفسها عن بعد قصداً .. ثم صوتها الرقيق وهى تتساءل عما إذا كان عبده بك يحب الشربات أو القهوة .! وجلس عبده

على مقعد حجرى قابله وأطلق نفسه تحلم بالماضى وتصوره كما تشاء مفرطة فى تكبير الصور كما يشتهى . .

إنه يحفظ جيداً ما قالته من كلمات ويعى رنة صوتها . كل مافيها يومئذ كان يدل على اهتمامها به وبمقدمه . ولعل مسألة سلك الكهرباء ما كانت سوى حجة مخترعة . . إنه لا يذكر أن رآها رؤية ملية طويلة . فالمرة الأولى كانت يوم أن اختلس النظر إليها مع رفاقه من ثقب باب حجرة زنوبة . والمرة الأخيرة كانت يوم إصلاح الكهرباء المعهود . . ولقد كانت فرصة سانحة يومئذ ليملأ عينيه منها ولو أنها كانت تخطر من وراء الأبواب كالريم المنفلت . . ولقد أطلت برأسها وأطالت الوقوف مرة . . غير أنه أسدل عينيه انبهاراً وقد التقت بعينيها . . ما أجملها ! على الرغم من رؤيته القصيرة لها فإنه يذكر شعوره الأول يوم رآها وشعوره الأخير يوم غادرها : إنها أجمل امرأة شاهدها . وهنا ارتجف عبده إذ ذكر أن هذه المرأة هى الآن لرجل واحد . رجل أجنبى عنهم جميعاً وإنها فضلته عليهم جميعاً . . وأحبته وتكاتبه ويكاتبها والمراسيل بينهما ذاهبة آيبة . .

نهض عبده مستوياً فجأة وكأنما بدا له أن يذهب تواً إلى مصطفى هذا ويشبعه ضرباً ولكماً : أو أن يذهب إلى مالك المنزل ويطلب إليه طرد هذا الرجل . أو أن يفعل أى شىء يؤذى به هذا الشخص . .

وسار فى طريقه إلى حى السيدة . وأضعف طول الطريق من سورته . وبردت حدته . وطفق يتكلم بلسان العقل قليلا متسائلاً لماذا يسىء إلى

مصطفى وما ذنب هذا الرجل إذا كانت هي تحبه ؟ أو يعلم هو بحبهم لها ؟ وإذا كان يعلم فماذا يصنع إذا كانت هي اختارته ؟

وانقلب عبده عندئذ عليها هي . وجعل يقول في غيظ ان كيف استطاعت هذه الفتاة أن تنكرهم هم الذين يتصلون بها و بأسرتها طول تلك المدة وتتعلق برجل بعيد عنها وعن أسرتها ولا معرفة لها به . ؟

ونسى عبده في تلك اللحظة غيظه من سليم ومحسن الذى كان يشعر به نحوها كلما اختلفا إلى منزل سنية بأى حجة . وأحس الساعة أنه كان أحب إليه ألف مرة أن تختار سنية واحداً منهما من أن تختار هذا الغريب . . وشعر بعطف وحنو ورابطة اتحاد تصله برفاقه المنكوبين مثله . ولاحظ أنه وهو يتكلم ويثور إنما يتكلم باسمهم جميعاً لا باسمه وحده فقط . .

ولأول مرة أحس الحاجة إلى القرب منهم والكلام معهم في هذا الأمر . فالعاطفة بينهم مشتركة وكل شيء مشترك .. وكذلك الخيبة والألم ..

* * *

في تلك الساعة أيضاً كان سليم في قهوة الجندى « فوق » وكان قد عاد إليها ذلك اليوم بعد أن أيقن أن لا فائدة من بيت الجيران وحاول سليم أن يقنع « الشعب » بأن بيت الجيران لم يكن يهمه قط وأن سنية إن هي إلا فتاة ككل الفتيات لا شأن لها عنده ولا يلتفت مثله إليها . غير أنه إن استطاع اقناع سواه بهذا الكلام فهو أحوج الناس إلى اقناع نفسه به أولا .. وهكذا مضى سليم إلى قهوة الجندى حاسبا أنه قد محا كل شيء بهذا

الثمن البخس . وهو يدخل السرور والعزاء على نفسه بقوله :

— فين سنيه .. وايش تكون من المدموازيلات الوظووظات الخفافى دول !

وأخذ مجلسه وهو يلتفت يمنة ويسرة يتعرف المكان ويستذكر ماضيه فيه .. ذلك الماضى المملوء سروراً ومرحا . وجعل يتصفح وجوه الآنسات الجالسات إلى « الزبائن » أو الرائحات الغاديات أو المنتظرات موعداً أو العاطلات المتربصات للفرص . وكأنه لا يعرف منهن واحدة . وهو الذى ما كان يجهل امرأة تدخل هذا المكان أيام أن كان الزبون المواظب المستديم . غير أنه ما لبث أن لمحته واحدة جالسة بمفردها إلى مائدة فعرفته وابتسمت له تدعوه إليها فنهض فى الحال وأقبل عليها يفتل شاربه مختالا . ومد يده إليها مسلماً فى لهجة الصاحب القديم :

— إزيك يا ماريه . ! .

وما كاد يجلس بجوارها حتى أحاطت به « الجرسونات » فرفع رأسه إليهم وقال متجهماً :

— خبر إيه !

ولكنه تمالك نفسه فى الحال إذ عرفهم وذكر ظهوره أمامهم بمظهر الثرى فغير لهجته وقال لأحدهم وهو نوبى ممتلىء :

— انت لسه عايش يافسدق !

— أمال ياسعادة البك . . خدامك !

فانتفخ سليم قليلا وأشار إلى صاحبته ثم قال لفسدق :

— شوف المدموازيل تطلب إيه ؟

فانحنى « الجرسون » على المرأة يتلقى أمرها . وجعلت هى تفكر لحظة وسليم ينتظر نطقها فى قلق كمن ينتظر نطقاً بالحكم عليه بغرامة . وسليم ليس له من رأس مال سوى التظاهر والإدعاء الكاذب و « الفشر » . بهذا استطاع أن يختلف إلى هذا المشرب فى الماضى ويجعل له شخصية بارزة بين رواده وزائريه ، وأخيراً نطقت المدموازيل قائلة للخادم :

— ادينى واحد كونياك مارتيل بالصودا ! .

فتركها فسدق والتفت إلى سليم فى احترام :

— والبك ؟ !

فحك سليم رأسه وتظاهر بالتفكير والحيرة لحظة ثم قال :

— أنا . . أنا هات لى واحد صودا بس . . وعليها شوية شربات ورد صغيرة . . انت عارف معدتى يافسدق . .

فتردد الخادم قليلا ثم لم ير بداً من الانصراف ليأتى بالطلبات .

وعندئذ التفتت المرأة إلى سليم وقالت :

— سليم بك . . دايماً المعده بتاعك عيان ؟ !

— أعمل إيه يا مارية . ألا على فكره ... فين امال كتينه وأختها آديل . ؟ !

وأخذ يحادثها فى مختلف الموضوعات التافهة ويلاطفها ويداعبها

ويضاحكها فى قوة وضجة وحماسة وعربدة لم تعهدها فيه ، وكأنما هو يتشفى اليوم ويثأر لنفسه المدحورة فى الميدان الآخر . .

ودخل زبون جديد عليه سيما النعمة الحقيقية وصفق بيديه ، فسرعان ما اتجهت أنظار النساء اليه ، وانصرفت مارى عن حديث سليم ، وظلت ترمق هذا الزبون الجديد ، وأخيراً نهضت مستأذنة فى الذهاب لحظة إلى دورة المياه ، ومشت تتهادى قرب الزبون الجديد تاركة سليم « مع الطلبات » وسكن سليم إلى نفسه وانقشع عنه غبار هذا المرح الكاذب الذى أثاره فى قلبه متعمداً ، ورسبت الكآبة والخيبة التى كان يحاول عبثا سترها عن نفسه وانقلبت ابتسامة السرور على شفتيه إلى ابتسامة ازدراء مرة ، والتفت إلى أولئك الفتيات ، وجعل يتأمل أصباغهن التى تسيل بفعل العرق على وجوههن الشاحبة وينظر إلى تلك الحركات واللهجات المتكلفة والضحكات والغمزات واللمزات المتصنعة ، ولاول مرة ساءل نفسه كيف استطاع غشيان هذا المكان ، وكيف أن هاته العاهرات كن يعجبنه ! !

وعادت اليه مارى بعد قليل إذ لم يعبأ بهـا الزبون الجديد وجالس أخرى .

فألفت سليم ساهما متجهم الوجه مفكراً ، فقالت دهشة :

— ايه ! سليم بك مش مبسوط كتير ؟ !

فرفع رأسه اليها وسدد نحوها نظرات جامدة جافية ، وأجاب فى برود :

— مبسوط كتير ؟

ثم تركها والتفت توا إلى كوب الصودا الوردى ، فاشتغل به عنها ، ومكثت هى تنظر اليه لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه وهزت أكتافها خفيفا وجعل سليم يحرك الملعقة فى الكوب وينظر خلال لونه مستذكراً يوم شرب «شربات» الورد عند سنية حينما ذهب لفحص البيانو ، إنه أخطأ إذ حسب تلك الفتاة لم تترك فى نفسه أثراً ، ان ما فعلته به لأكثر من مجرد ترك أثر ، ها هو ذا اليوم يزدرى بعدها هاته النسوة وأيقظت فى نفسه عاطفة جديدة لم يكن يعرفها قبلا ، عاطفة الإعجاب النبيل ، وأن ذلك التقزز والاشمئزاز الذى يحسه الآن نحو هاته المدموازيلات ، إنما يبعثه تذكره جمال سنية الرفيع وظرفها غير المبتذل وإحساسها الصادق ، لقد أدرك سليم الآن أن قد حرمت عليه عاهرة بعد اليوم ، انه يحس أن قلبه قد ارتفع ، بل يحس أن قد أصبح له قلب يضن به على العاهرات ، سليم اليوز باشى يحس هذا الإحساس الآن ؟ ! شد ما تغير ! وهو نفسه استغرب من نفسة الآن ذلك الإحساس العالى وعلم أن سنية جعلته يعرف من نفسه أشياء و يستكشف فيها مناطق مجهولة ، وهل كان يعلم قبل اليوم هذا اليوز باشى أن فى نفسه عواطف طاهرة ، بل هل كان مثله يعلم معنى لتلك الكلمات « طهارة . . نبل » ! ! إنه هو نفسه ما كان يفهم حبه لسنية إلا أنه حب طائش خفيف مبتذل كحبه للشامية فى بور سعيد ولهاته النسوان من قبل . ذلك أنه ما كان يعرف فى نفسه قدرة ولا ادراكا لحب أرفع . . .

وجرع سليم جرعة واحدة من كوبه ثم بصق وأقصاه عنه بطرف أصبعه وصفق فأتى النوبى فسدق ووقع بصره على كوب سليم الملآن فالتفت إليه يسأله بعينيه لماذا لم يشرب . فارتسمت على فم سليم علامة اشمئزاز وقال :

— ريحته وحشه !

وأراد الجرسون اعتراضاً فأشار له بيده أن كفى ولا لزوم للكلام ثم دس يده فى جيبه وأخرج له ثمن ماطلب وثمن ماطلبت المدموازيل أى الكونياك والصودا مضافاً إليه بقشيشه . ثم نهض وانصرف بعد أن أشار بعلامة تحية مختصرة للمرأة . وعجبت المرأة لأمره ولبثت تشيعه بأنظار المستغرب حتى نزل السلم فهزت كتفها فى شبه غيظ ولفظت ضحكة استهزاء

ومشى سليم فى الشارع واستقبل الهواء الطلق برئتيه فشعر بارتياح وخيل إليه أنه كان يتنفس هواء فاسداً كريه الرائحة فى ذلك المكان .

الفصل الرابع عشر

عاد سليم إلى المنزل فلقى مبروك الخادم فى الردهة يشير إليه بالسكون . ثم يشير مبتسما فى خبث إلى حجرة زنوبة الموصدة . فارتجف سليم وتردد قليلاً ثم هجم على الحجرة برفق سائراً على أطراف قدميه ونظر فى ثقب الباب وعندئذ ظهر عبده قافلا من الخارج هو الآخر فاستقبله مبروك بنفس الإشارة والابتسامة . ويكفى عبده أن يرى سليم منكباً على ثقب الباب ليحدث فى قلبه ما حدث لسليم وأشد . ولفوره اتجه إلى الباب وزاحم اليوزباشى بمنكبيه وقلبه يدق دقا متواصلا . ولكن سليم ما لبث أن استوى تاركا لعبده الثقب فى ابتسامة مرة والتفت إلى مبروك وسأله هامسا :

— مين دى الحرمه اللى جوه ؟

واستوى عبده أيضا عقب ذلك فى خيبة رجاء . . ووقف بجانب سليم كأنه متضامن معه فى السؤال ومنتظر معه جواب مبروك ونظر إليهما مبروك وفهم قصدهما من النظر خلال الثقب فلفظ آهة صادقة كأنه هو أيضا باخلاص يدرك ويحس نفس إحساسهما وطفق يقول :

— أيام زمان ما تعودشى . . . أيام زمان ماتعودشى خلاص . !

ولكنهما استعجلاه فى الجواب وأعاد عليه عبده بصبر نافد :

— مين الحرمه دى ؟؟

فتنحنح مبروك واقترب منهما وهمس سريعا :

— مراة الحانوتى .

فردد الأثنان معا فى دهشة :

— حانوتى ! ؟

و بدا عليهما عدم الفهم . فجذبهما مبروك بعيداً إلى غرفة النوم العمومية ذات الأسرة وجعل يقص عليهما فى لهجة التشفى والرضا أن هذه المرأة هى امرأة حانوتى خط السيده زينب وهى التى ستحضر لهم قبضة من تراب ميت لم يمض على دفنه : ثلاث ليال .

فقال له عبده بقوة :

— ليه ؟ علشان إيه ؟

فأجاب مبروك بنفس لهجة التشفى :

— علشان « العمل » اللى رايحين نرشه على عتبة الراجل مصطفى ..

فهز عبده رأسه وقد أدرك كل شىء . وعاد فسأل مبروك قائلا :

— طبعا دى أفكار زنوبة ؟

فأجاب مبروك بالايجاب فى فخر وزاد على ذلك بقوله إن زنوبة استشارت فى هذه « الوصفة » أشهر « عالم » و إنها مجربة ولا خوف من الفشل و إذا لم يمت مصطفى بعد ثلاثة أيام فان « العالم صاحب الوصفة » لايستحق أجراً . . . وهو الذى اشترط ذلك على نفسه بعد أن أخذ فقط مبلغ « رمى البياض » .

وقد ذهب أى مبروك منذ أيام يبحث عن امرأة الحانوتى يستدعيها لزنوبة تتفق معها فلم يظفر بها إلا اليوم . وسكت مبروك لحظة ونظر إليهما كأنما ينتظر منهما كلمة موافقة أو تشجيع . غير أنهما لزما الصمت . . . وغرق عبده فى تأمل عميق ... وقد بدا له أن : بينا هم قد أسلموا الأمر لله ولم يستطيعوا عمل شىء ... إذا زنوبة لاتفتأ تعمل ولا يوقفها دين ولا ضمير فى سبيل غايتها . تود أن يموت مصطفى بعد ثلاثة أيام ؟ وتعمل هى على موته ... موت إنسان لا ذنب له إلا أنه لم يحبها هى . يا للوحشية ! أهذه هى المرأة إذا أحبت وخاب أملها فى الحب .. تصبح هكذا حيواناً مفترساً ؟ !

ثم خطرت لعبده فكرة أظلمت لديها الدنيا فى عينيه . ومن غريب الاتفاق أن خطر لسليم ماخطر له . . . وإذا سليم يلتفت فى قلق وشك إلى مبروك سائلا :

— انت متأكد ان « العمل » ده علشان مصطفى ... بس ... وحده . ؟ .

وأضاف عبده فى لهجة عصبية أشبه بالصياح :

— مش معقول . زنوبة تموت مصطفى وتسيب سنية . !

وأدرك مبروك هذا فجأة فاختلج قلبه هو أيضا وقال بصوت قلق مبحوح وكأنما يخاطب نفسه أيضاً :

— هى قالت لى على مصطفى بس . . ما أعرفش . . يمكن . . كمان . . وعندئذ جعل سليم يوضح لهما ما يظنه قصد زنوبه قائلا إنها لايمكن أن

تكون قد قصدت بمصطفى شراً وأن الشر كله مقصود به سنية لا سواها . هذا هو المعقول وهذه هى مصلحة زنوبة نفسها . إنها تتمنى موت سنيه لأنها منافستها وغريمتها . غير أنها كى تشرك مبروك الساذج معها فى العمل أخفت عنه القصد الحقيق وأفهمته أن المقصود بالشر مصطفى لا سواه . وما بلغ سليم هـذا الحد حتى سمع باب الشقة يفتح ويغلق فأيقنوا أن الزائرة قد خرجت فهبوا إلى زنوبة وصاح بها عبده قائلا :

— مين الحرمة اللى كانت هنا ؟

فارتبكت زنوبه قليلاً من وقع لهجته الشديدة . لـكنها تمـالـكت وابتسمت وأقبلت عليهم تقص ما قاله مبروك منذ قليل . فصاح بها عبده فى غضب مخيف :

— انت يعنى مش ناوية تبطلى أمور السحر بتاعتك دى ؟

وأردف سليم قائلا :

— نفرض طيب انك عامله العمل لمصطفى ، تقتلى راجل ! تموتى بنى آدم ؟؟ وضميرك يرضى بكده ؟!

فأطرقت قايلا وهى تغلى غيظاً ثم رفعت رأسها فى عنف وصاحت فيهم :

— أنا ما أقدرش أقعد طرطور فى البيت ده ، أشوف المراسيل داخله خارجه . ! !

ثم التفتت إلى عبده وقالت :

— أعمل إيه ؟ أنا غلبت أقول لك روح لصاحب الملك فهمه ورسيه

وقول له بيجى يعزل الساكن العازب ده إللى قلب البيت كرخانه .

فصعد الدم إلى رأس عبده وقد وخزته هذه الألفاظ البذيئة . . . مهما كان من صلة سنية بمصطفى فهى ما زالت شريفة لايصح أن تنعت بهذه النعوت القذرة ، ولا يدرى عبده لماذا كانت تجرحه هذه النعوت القذرة وهى توجه إلى سنية ، أتراه ما زال يحترمها ؟ ويرى فيها مثله الأعلى ولا يقبل من أحد أن يدنس هذا التمثال المرمرى البديع ولو أنه ليس له ؟ ! !

أعجب من هذا أن سليم نفسه أدار ظهره لزنوبة مشمئزاً هو الآخر . .

وسمع الباب يفتح ثم يغلق وظهر محسن فالتفت إليه الجميع وهالهم مارأوا: وجهاً باهتا . . . وجفونا حمراء وساقين لايكادان يحملانه . . . فلم تتمالك زنوبه أن ابتدرته :

— محسن ؟ ! مالك ؟ ؟ ؟ !

فرفع رأسه وأراد أن يقول لهم أن لا شيء .... غير أنه قبل أن ينبس بادروه متسائلين :

— عيان ؟ ؟

فرأى أن يقول لهم :

— أيوه . . .

ثم سار إلى سريره وخلع ملابسه واندس فى فراشه . . . بينا عبده وسليم يرقبانه وكأنهما أدركا مابه . فتقطع قلباهما رأفة به وذهبا فى سكون وجلسا على حافة سريره وكأنما يريدان لو يستطيعان له عزاء ، أو

تخفيفاً . . . غير أنهما خشيا أن يسىء فهمهما . . . ويصدم ذلك احساسه . ففضلا الصمت . . . غير أنهما أحسا نحوه عطفا ومحبة لم تبلغ فى يوم مبلغها ذلك اليوم . . . . وأطرقا وقد شاهداه يطبق عينيه تعبا . . . وكأنهما حزرا مبلغ ألمه وقارناه بما عندهما فأكبراه . . وشعرا الأول مرة بأنهما دونه وأنه يمتاز عليهما بقلبه النادر . . .

الفصل الخامس عشر

لم يكن أحد من الجيران المحيطين بمصطفى يعلم عنه شيئا أكثر من أنه فتى ميسور الحال . ولعل أول من تحرى عنه زنوبه . فانه منذ هبط المنزل فى أول تلك السنة احتالت حتى سألت خادمه عنه وعما يعمل ولم تكن بعد مدفوعة إلا بحب الاستطلاع عن جار جديد فأجابها الخادم على عجل وهو يشتغل بنقل « عزال » مختصر تحمله عربة نقل ذات بغل بالباب .

— صنعته ؟ من الأعيان . . .

وصعد الخادم منهمكا بالعمل لاهياً عنها فلم تستطع أن تسأله من أعيان أى بلد . . . وهل هو من مصر أم من الأرياف أم البنادر ؟ ولمحته زنوبه بعدئذ من النافذة بالقهوة التى أمام المنزل واستملحته ولكنها لم تستطع أن تعلم عنه أكثر مما علمت . لعل الحياء كان يمنعها أو خشية الاضطراب أن يبدو عليها وقد أصبح الشخص يهمها أو لعل المصادفة لم تمكنها من ذلك الخادم الذى ما كان يرى إلا قليلا، والواقع أن مصطفى نفسه فى أول عهده بالمنزل كان كثير التغيب . وإذا كان يرى بقهوة الحاج شحاته يوماً فانه كان يختفى عن الحى أياما كأنما هو فى سفر . . وكذلك خادمه .

ومع ذلك فلم يكن فى سلوك هذا الشاب ما يسترعى التفات أحد من

الجيران . فقد كان الهدوء شاملا مسكنه والسكينة مخيمة على بابه وكان يدخل ويخرج فلا يشعر به أحد . كأنما كان يتوخى حسن السمعة بين الجيران أو على الأقل دفع تلك الشبه التى تلتصق بكل أعزب يسكن بمفرده . . . ولعل معرفته الشخصية بصاحب الملك والثقة التى وضعها هذا الأخير فيه إذ رضى التأجير له بغير شرط ولا قيد جعلت مصطفى يبالغ فى الحرص على سمعته وعلى إيثار العزلة والسكينة .

غير أن شيئاً آخر ما كان يحمل هذا الشاب الموسر على تجنب مصر بضجيجها وملاهيها لينزوى فى قهوة الحاج شحاته يقضى فيها الساعات الطوال: لم يكن سبب جلوسه وتردده الوحيد مشاهدة سليم افندى أيام أن كان يغازل من بالشرفة . . . هذا لم يكن عند مصطفى سوى فصل مضحك يأتيه عفواً ليرفه عنه . . . ان مصطفى ذاك الوقت كان ضجراً غير منشرح الصدر لشىء فقد عاد إلى القاهرة يحسبها كما غادرها منذ خمس سنوات . . . إنه كان تلميذاً بمدرسة محمد على التى يرى بابها الخشبى الكبير وهو جالس بمكانه من القهوة . . . . ثم كان طالبا بمدرسة وادى النيل الثانوية التى ما زال يمر بها كلما سار فى شارع الدواوين . ثم كان قاطناً هذا الحى عينه الذى يتنفس هواءه الآن . لم يتغير شىء إلا المنزل الذى كان يسكنه وقتئذ بالبغالة . للأسف لم يستطع الظفر بالشقة التى كان يقطنها مع أخيه وأخته وزوج أخته الموظف بالمالية . لقد وجدها مشغولة منذ زمن طويل . . غير أن صاحب الملك اشترى منزلا آخر فى نفس الحى بشارع سلامه هو

رقم ٣٥ هذا . فلم يرد بداً من أن يسكن عنده . على أى حال صاحب الملك هو هو كذلك لم يتغير . لكن مصطفى مع ذلك ضجر كئيب النفس وقد أحس خيبة أمله فى القاهرة . فما الذى تغير اذن فى نظره ؟ . . .

كان مصطفى يجلس بقهوة الحاج شحاته يفكر فى ماضيه بهذا الحى و بأيام الدراسة و بأصدقائه و بلعبهم الكرة بجوار المنيل ونزههم الصيفية فى قوارب النيل والقمر طالع وقد أخذوا معهم طعاماً وفاكهة من بطيخ وشمام . . . فيأكلون ويشربون ويغنون حتى يقترب بهم القارب من جسر عباس خلف القصر العينى فيتركون المجاذيف و يدعون القارب يسير كما يشاء فى تلك المياه الهادئة الساكنة تحت الجسر وقد صور القمر على الماء أشكالا من الضوء والظل جميلة . وكان يصمت النيل حولهم إلا من صوت طائر ليلى يصفر أو من صوت سمكة تقمز فجأة فى الماء بجوارهم وهى تداعب سيقان العشب والغاب الناتىء قرب الشاطئ . و إذا هم الصاخبون الضاجون المتضاحكون يصمتون فى لحظات كأن ما حولهم من منظر شعرى أثار فيهم شيئاً من العواطف الطيبة الكامنة فيهم أو شيئاً من الاحساس العميق بالجمال السامى . وان للشباب على القلب حقا . وأنهم لفى تلك السن الذهبية التى ينبغى أن يثور فيها القلب ثورته الأولى والأخيرة لينكشف فيها للنفس تحت ضوء اللهب ما اندفن فى النفس من قوى وكنوز . ولكن يا للأسف . . أنى لهذا الشباب أن يضىء قلبه وهو لا يعرف المرأة ! لم يكن واحد من عصبة الفتيان فى القارب قد أتاحت له الظروف أن يعرف المرأة . . المرأة

ذات القلب . . ذات النفس . . تلك التى توحى بعظائم الأعمال . لا المرأة العاهر التى يرونها كل ليلة جمعة فى مقابل عشرين قرشاً . . .

لذلك لم تدم لحظات الصمت هذه التى استرقها منهم هذا المنظر الرائع فى شعره . . ولا استطاعت أن تصل كثيراً إلى تلك النفوس التى سممتها وأماتتها أنفاس العاهرات المملوءة بجراثيم المادة السافلة . . وحرك القمر والماء والنسيم أكثرهم شاعرية فهب يردد أبياتا من شعر برنامج البكالوريا المقرر عليهم فى ذلك العام فاستقبله زملاؤه بالمزاح الثقيل والنكات البذيئة فسكت خجلا . . ثم انقلب معهم بعد قليل يجاريهم فى هذرهم الأحمق وصخبهم البهيمى وقد تناسى ذلك البريق من سمو الخيال وسمو الاحساس الذى لمع فى قلبه منذ لحظة . . . وهكذا كانت تنطفىء فى نفوس أولئك الفتية المملوئين حياة تلك الذرات من قبس العظمة . . . واستأنفوا نزهتهم وسط الغناء المبتذل والضحك الحيوانى حتى إذا انتصف الليل عادوا إلى منازلهم يتخبطون فى حارات البغالة الخالية من المصابيح وقد ازداد صياحهم كالسكارى . . .

غير أن مصطفى ما كان يستذكر الماضى على هذا النحو . بل كان يراه عهد الشباب الأول السعيد بمرحه ولعبه واجتماع شمل الإخوان . فأين هم الآن ؟ هؤلاء الإخوان ؟ من يدرى ؟ لعل منهم الطبيب فى مركز والملاحظ فى بندر والموظف فى مديرية والعاطل الشارد ! حتى أخوه الذى كان من العصبة قد سافر من أعوام لإتمام الدراسة فى فرنسا ولم يرجع بعد ولا يريد أن يرجع .. حتى حين دعوه لمناسبة ظروف خطيرة .. ومع ذلك فقد بحث

مصطفى عن إخوان الماضى من ساعة وصوله إلى القاهرة . فوجد بعضهم . فلاقاهم ولاقوه بشوق كبير أول يوم . واستفسر منهم عن حالهم فإذا هم موظفون فى مصالح الحكومة واستفسروا هم عنه وعما قطع بينهم و بينه كل هذه المدة فأخبرهم أن والده أراده بعد نواله البكالوريا على العمل معه فى محل تجارتهم « المانيفاتوره » المشهور بالمحلة الكبرى . وقد مكث مرغماً بالمحلة الكبرى طول هذه الأعوام حتى توفى والده أول هذه السنة فلم يضع وقتاً . . ولبث فقط مقدار ما قام بالواجب نحو الراحل ثم جهز نفسه على عجل للسفر مصطحباً خادماً ومتاعاً بسيطاً تاركاً محل المانيفاتورة الكبير فى عهدة المستخدمين . وقد وطن العزم على ترك التجارة والسعى للتوظف فى إحدى دواوين الحكومة حتى يكون فى القاهرة دائماً . غير أنه للأسف لم يجد القاهرة التى كان يحن إليها دائماً . وأنه للأسف لا يكاد يعرف فيها بلد الماضى . وكأن كل شىء فيها تغير مع أن لا شىء فيها تغير .

نعم لقد استطاع من وجدهم من الإخوان أن يبددوا عنه تلك الكآبة أول يوم . فلقد قادوه معهم يجوسون خلال المدينة ليرى ما استجد فيها من ملاه ولعب . ومضوا به فى الليل إلى المشارب ثم إلى دور الدعارة . . فأخذت مصطفى ذلك اليوم بهرة العاصمة وما شاهده من جديد بعد الغيبة عنها . . وشغله ذلك قليلا عن شعوره الخفى الكئيب . لكن أصدقاءه كرروا معه تلك النزهة واستطاع مصطفى أن يلاحظ بعدئذ فيهم تغيراً هائلا فى أخلاقهم. فلقد رأى بادئ بدء أنهم لا يقصدون فى صلتهم به بعث ود قديم ولا

أنهم يستظرفونه أو يصاحبونه لنفسه كما كانوا يفعلون قبلاً . بل إنهم إنما يريدون استغلاله والتقرب منه لينفق عليهم من ماله الذى ورثه عن والده . . هذا ما فهمه منهم ومن سلوكهم معه .

فانقطع فى الحال عن هؤلاء الصحاب مستنكراً ذلك الخلق منهم مستغرباً تغير إخوان الشباب هذا التغير . . .

لهذا فضل الوحدة فى قهوة الحاج شحاته موقناً أن بعث الماضى كما كان ضرب من المحال . وانصرف عن تلك الكآبة شيئاً فشيئاً إلى التفكير فيما يصنع . أيعود إلى المحلة الكبرى ويباشر إدارة المحل ويخلف والده المثابر النشيط .. أم يظل على فكرته الأولى راغباً فى الالتحاق بوظيفة فى القاهرة بعد أن يصفى المحل ويقسم التركة بين الورثة : هو وأخوه وأخته ؟ ! ان أخته فوضت له الأمر وقد وصله خطاب من الفيوم حيث تقيم وزوجها الموظف الآن بإدارة المديرية ، وكذلك أخوه أرسل إليه من فرنسا يقول له « افعل ما شئت على شرط ألا تطلب إلىّ الحضور إلى مصر وألا تمس مصروفى الشهرى بنقص ما » .

ثم هو نفسه لا يريد بعد الآن الاستقرار فى المحلة الكبرى ولا الارتباط بهذا المحل . وما أهون عليه تصفيته وبيعه إلى فرع محل الخواجه ك . س . كازولى . وقد عرض هذا الأخير عليه الشراء من يوم أن شم رائحة الرغبة فى التصفية ومن يوم أن علم بسفر مصطفى إلى القاهرة بعد وفاة والده . . . نعم لم يكن مصطفى إلا شاباً فاقد الهمة . إنه ليس فاسد الطبيعة ولا سافل

الخلق . و إن فى نفسه لكثير من الخير والفضيلة . . لكن هذا الخير دفين تحت جليد الخمول وخور العزيمة .

لقد استشار نفسه كثيراً فى أمر محل المانيفاتورة . وسافر مراراً إلى المحلة ثم عاد ثم سافر هو وخادمه . . ثم عاد . . ثم كان يرسل خادمه إليها يوافيه بأخبار المحل وقد حسب أنها أيسر وأحسن طريقة لإدارته . . لكن كل هذا لم يزده إلا يقيناً بأنه لايقوى على متاعب التجارة ومسئولية العمل الحر. إن المحل من يوم سفره فى نزول مستمر و إيراده ينقص باطراد وهو لايدرى إن كان ذلك لضعف المراقبة على المستخدمين وقد تركهم وأتى يجلس بقهوة الحاج شحاته أو أن ذلك من ضعف الإدارة وعدم الجد والكدح . على أى حال ما له ولهذا كله ولماذا لا يتخلص من هذا المشكل ببيع المحل للخواجه كازولى ؟ . أحسن طريقة . ؟

لم يكن أحد يعارضه فى هذه الفكرة . فوالدته متوفية . غير أن له خالاً من كبار تجار القطن سمع ما شاع عن تصفية المحل و بيعه لكازولى فذهب إلى ابن أخته مستغربا مستنكراً ونصحه ألا يفعل وتوسل إليه فى إشفاق . . فإنها خسارة كبرى ، ولكن مصطفى بك ضحك هازئا وقال فى اطمئنان :

— خساره ! هو احنا بس عايشين بالمحل ده ؟ ! !

فأجاب خاله :

— يابنى البركه كلها فى المحل ده ! . هو المحل ده اللى جاب الأطيان والأملاك كلها . . .

صحيح . لم يكن ميراث مصطفى وأخوته قاصراً على المحل بل ترك لهم والدهم المرحوم أملاكا أخرى وأطيان . . . لذلك لم يهتم مصطفى كثيراً بالمحل . غير أن خاله قال له فى أسف إن هذا لا يصح من ابن تاجر . ويا ويل التجار إذن إذا كان سيخلفهم أبناء يتركون المهنة ويسعون إلى وظيفة صغيرة . بل ويا للعار على وطنى يترك محل تجارته لأجنبى يحتله . . . ويصبح محل مانيفاتورة راجى الشهير فرعاً للخواجه كازولى الرومى . . !

ولكن أين لهذا القلب الخامد أن يتأثر بهذا الكلام . . !

الفصل السادس عشر

لولا زنوبة لما اتجه التفات سنية إلى قهوة الحاج شحاته الصغيرة . ولما وقع نظرها على هـذا الشاب اللطيف ذى الشارب الأشقر الصغير . وهو ساكن هادئ منعزل فى ركنه لا يبالى بشىء حوله إلا بحركات اليوزباشى سليم المضحكة أمامه .

وفى نفس اليوم الذى شاهدته فيه جاءها محسن وكاشفها بحكاية المنديل الحريرى وأساء السرد بما جعلها تفهم بادئ الأمر أن الريح قد تكون حملت المنديل إلى أحد الجيران . فقامت من ساعتها إلى النافذة فرأت أن الشقة السفلى التى يقطنها مصطفى لها شرفة صغيرة مكشوفة تكاد تجاور نافذة حجرتها الخاصة . فخامرها شك أن يكون المنديل لدى مصطفى وأنه حفظه لأمر فى نفسه . غير أن هذه الفكرة لم تلبث أن زالت عند مقابلتها التالية لمحسن حيث اعترف لها بالحقيقة . إلا أنها ظلت ترقب مصطفى كلما جلس بالقهوة لا لشىء سوى أنها تحس شيئاً يدفعها إلى النظر إليه ولا تدرى لماذا ...

وكان يوم وداع محسن وما وقع فيه وكانت صادقة مخلصة فى كل ما أبدت من علامات التعطف والتأثر . وسافر محسن فماذا حدث ؟ لا شىء سوى أنها استمرت تتسلى بالنظر إلى القهوة من خلف نافذة الشرفة

الخشبية . فكانت ترى مصطفى فى مكانه المعتاد وقد ازداد فى انعكافه وعزلته بعد انقطاع سليم عن القهوة . وبدت على وجهه كآبة وتفكير لا يخف الآن من مظهرهما القاتم تلك الضحكات المكتومة والابتسامات التى كان يثيرها فيه وجود سليم بشواربه المفتولة وعرض أكتافه وأمره ونهيه وضجته المختالة بالكذب ونظراته المرتفعة إلى الشرفة الخشبية .

غير أن ما كان يحير سنيه هو أن مصطفى ما كان ينظر قط إلى الشرفة الخشبية . . حتى أيام سليم ... وحتى وقد فطن إلى سبب حركاته ونظراته فإنه هو لم يكن يرفع بصره إلى الشرفة إلا قليلا وفى تأدب وتحفظ كمن لا غرض له إلا تتبع خبر سليم .

وهجر سليم القهوة وظل مصطفى يختلف إليها مدفوعاً بالعادة وبأنها خير من البيت الخاوى . على الأقل فيها يستطيع شرب فنجان من الشاى بغير جهد ولا عمل . ثم هى فوق ذلك مكان صالح للتفكير فى شأنه وما ينبغى أن يعزم عليه فى مستقبله . إلا أنه لم يكن ينظر إلى الشرفة الخشبية . ولم يفعل . ومن يذكره بها وقد اختفى سليم عنه ! لهذا أخذت سنية بعد سفر محسن تقضى أغلب وقتها تراقبه فلا تظفر منه بنظرة إلى شرفتها . فتساءلت فى نفسها مستغربة ما يفعله مثله فى قهوة كهذه ؟ وفيم يفكر ؟ ولماذا لا ينظر إلى الشرفة ؟ وبلغ بها هذا التساؤل والعجب إلى حد الاهتمام فجعلت تلبس أبهر أثوابها ألواناً وتذهب إلى البيانو فتضرب دوراً شائعاً مما ذاعت نغمته بين الناس بعد أن تكون قد فتحت كل نوافذ الشرفة . عسى أن يبلغ

الصوت الطريق . فإذا ما انتهت وقفت بالنافذة وهى تتظاهر بمعالجة فتحها أو غلقها فى قوة وجلبة . بل بلغ بها الأمر أن بات لايحلو لها مناداة جاريتها بصوت عال أو الحديث أو الضحك المرتفع إلا قرب النافذة . لهذا كله نشبت المعركة بينها و بين زنوبة التى كانت تزورها فترى منها هذه الأفعال . فلما تأكد لزنوبة أن سنيه إنما غرضها لفت نظر مصطفى لم تطق سكوتا ونهرتها ناهية . ولكن فى لهجة اهتمام أثارت شك سنيه فى الحال وفطنت إلى ما فى نفس زنوبة . فقهقهت ضاحكة فى سخرية :

— حتى انت ياللى تولدى قدى !!!

كلمة هائلة . ما فاهت بها حتى صاحت زنوبة هادرة كالناقة المغتلمة تسب وتشتم أفظع شتم وأبذأ سب . ثم ارتدت ملاءتها « اللف » السوداء التى جاءت بها وخرجت الخرجة التى لا رجعة بعدها . وسنيه تنظر ساكنة واجمة لا تستطيع ردا ولا حركة ، وجاءت الجارية على صوت الصياح فسمعت بعضاً من ألفاظ زنوبة وعندئذ التفتت سنيه إليها وقالت فى هدوء :

— شاهده يا داده بخيته ؟ ؟

فأجابت الجارية مستنكرة :

— إخص عليه ! ست قبيح خالص !

وكانت والدة سنيه فى حجرتها تصلى العصر فختمت الصلاة بسرعة لدى سماع الضجة وهرعت ترى الخبر فلحقت بزنوبة تنزل السلم فاستوقفتها

فى لهفة ولـكن زنوبه لم تقف واستمرت في النزول وهى تقول من أسفل السلم بصوت مرتفع صارخ :

— روحى ربى بنتك الشرموطة !

فوجمت والدة سنيه وذهلت قليلا . ولـكنها انتبهت فى الحال وغلى الدم فى وجهها . فأجابت وهى تطل من أعلى السلم مشرئبة :

— قطع لسان اللى يقول على سنيه كده ! !

ولـكن زنوبه خرجت واختفت وهى تدمدم وتردد . :

— حرم علىّ بيتكم . حرم على بيتكم العمر كله !

وظلت الأم جامدة لحظة ثم تذكرت ابنتها فجرت إليها فألفتها باهتة اللون باردة الأطراف فهدأت من روعها وهياجها ثم سألتها عما حدث فأخبرتها سنيه بكل شىء : بمجىء زنوبه ونظرها إلى القهوة كلما جاءت . وأنها تهتم بأمر جار لها يدعى مصطفى يجلس دائماً بالقهوة . وقد حدث منذ شهر أن نظرت إليه زنوبه فوجدته وحيداً بالقهوة فتناولت ملاءتها وهرولت نازلة ولم تشك سنيه يومئذ فى أمرها . ولـكنها اليوم وقبل اليوم كانت تلاحظ أن زنوبه لا تطيق رؤيتها بجانب النافذة . واليوم كل ما حدث أنها أرادت النظر من الشرفة فلم يرق ذلك لزنوبه وثارت وانتهى بها الأمر إلى السب والشتم والخروج على هذا الشكل .

فأطرقت الأم قليلا ثم قالت كأنما تخاطب نفسها :

— ياندامه ! هى صغيره على الأمور دى ؟ !

فرفعت سنيه رأسها وأردفت على الفور :

— قلت لها كده يانينه قامت زعلت وانغاظت !

وظهرت بخيته الجارية فأسرعت سنيه إلى أمها قائلة وهى تشير إلى بخيته الجارية :

— داده بخيته شاهده اسأليها يا نينه كمان .

فقالت الجارية فى الحال :

— اخص عليه ! ست قليل أدب خالص ! واحد قبيح خالص !

وهكذا ختمت مسألة الشجار . فتناولت الأم رأس ابنتها وأوسدتها صدرها وهى تسكن خاطرها وتناشدها ألا تعكر صفوها من أجل امرأة كزنوبة ولا من أجل شىء فى الدنيا ، فوضعت سنيه منديلها على عينيها كأنما تكفكف عبراتها امتثالا لتوسلات أمها ثم تخلصت بلطف من بين ذراعيها واتجهت إلى الشرفة ومنديلها فى يدها كمروحة تطرد به الحر عن وجهها المورد وهى تلفظ آهة الضيق كأنما هى ذاهبة إلى النافذة لا لشىء إلا لتستقبل الهواء الطلق العليل . ولكن ما كاد نظر سنيه يقع على القهوة حتى رأت مصطفى ينظر إلى الشرفة كأنما كان يتربص لظهور أحد فيها .

فارتدت فى الحال وتوارت عنه وقد خالجتها دهشة وخفقت بشىء من السرور الخفى . وليس فى الحقيقة محل للدهشة لو علمت أن صوت الشجار بينها و بين زنوبة قد وصل إلى القهوة وعقبه بقليل خروج هذه الأخيرة وهى ترغى وتزبد وتشير بحركات مهتاجة حتى دخلت منزلها رقم ٣٥ الذى

يقطن الطابق الأول منه مصطفى . وقد رأى كل ذلك مصطفى وهو جالس بمكانه من القهوة وتساءل فى نفسه عن هذا الصوت الآتى من الشرفة وعن هذه المرأة المنفعلة الخارجة من هذا البيت الداخلة المنزل الذى يقطنه . ودفعه حب الاستطلاع إلى استراق السمع والنظر فى اتجاه الشرفة . وفجأة تقابلت عيناه المترصدتان فى غير اكتراث بعينين سوداوين جميلتين فارتجف فى الحال . وإذا منظر غادة باهرة الحسن ما كادت تطلع عليه حتى نكصت وتوارت .

منظر بسيط لم يدم أكثر من خمس ثوان . ومع ذلك فإن مصطفى أحس بعده كأن عالماً آخر بأجمعه قد انكشف لعينيه بغتة وتولد فيه شعور خفى بأن الدنيا أصبح لها طعم آخر . وأن حياته قد اتخذت اتجاهاً آخر فى لمح البصر ! نعم خمس ثوان فى حياة شخص هى لا شىء . ومع ذلك قد تكون أحياناً هى كل شىء ! قد ينقضى عمر شخص كله دون أن ينحرف أساس حياته أنملة . وقد تأتى خمس ثوان فقط فتستطيع أن تغير هذا الأساس أو أن تقلبه رأساً على عقب .

ماذا رأى مصطفى غير فتاة برزت ثم اختفت كسنا البرق ؟ كسنا البرق أضاء كل أرجاء قلبه المظلم . ! . خمس ثوان لمح فيها مصطفى لأول مرة فى حياته جمالا هزّ قلبه . . . ولم يكن يعرف أن كل هذا فى هذا البيت ... وتنبه أخيراً من سكرة الصدمة وجعل يقول فى نفسه :

— المصيبة إنى هنا من أول السنة ولا عنديش خبر !

وأخذته نشوة فرح من لقى لقيا فنزل على نفسه يؤنبها :

– أما مغفل ! . . حمار . ! أعمى . . .

وكأنما صدره يكاد يثب . . . فنظر إلى الشرفة نظرة مؤدبة قانعة فلم ير بها أحداً فنهض بغير يأس . . وسار فى الطرقات مبتهجاً يريد لو يقطع القاهرة كلها طولا وعرضاً بخطاه الواسعة الفرحة . . . وذكر فجأة ساعة مجيئه القهوة وقارن حالته إذ ذاك بساعة مغادرته لها الآن ولم يمض بين الساعتين وقت طويل فانكر شخصيته الماضية وكأنما غدا رجلا آخر . .

فى تلك اللحظة كانت سنية فى قلب الغرفة تسترجع فى مخيلتها نفس الأثر . هى أيضاً أخذتها غير الدهشة رجفة عند ما تقابلت عيناهما . وقد ارتدت فى الحال لأنها لم تكن تتوقع أن ستتقابل عيناهما فجأة ولا أنها ستراه ناظراً الى الشرفة . . ذلك الشاب المنعزل الساهم . . وأخذت تناجى نفسها فى ابتهاج أولا . . . ولكنها بغتة كأنما اعتراها خجل من نفسها . . عادت تقول متكلفة التجهم متصنعة الحدة والغضب : لماذا ينظر هذا الرجل إلى الشرفة ؛ وبأى حق وبأى جرأة وأى جسارة يستبيح هذا الشاب لنفسه النظر اليها ؟ ؟ وخيل لها لو أن باستطاعتها أن تزجره وتؤنبه على ذلك . . وأن تغلظ له فى القول . ومع ذلك لم يمض على حدتها وهياجها لحظة حتى اتجهت إلى الشرفة لا لشىء سوى أن تعلم إذا كان هذا الشاب الجسور ما زال ينظر اليها أو إلى الشرفة . . واقتربت سنية من النافذة بعد أن رتبت بسرعة وباعتناء شعرها البديع أمام المرآة .. وكم كانت دهشتها عندما

رأت أن ذلك الذى تتهمه بالجرأة والجسارة والذى تحسبه جالساً يتأمل شرفتها ليس له أثر بالقهوة ومكانه خال . وأنه لا فقط امتنع عن معاودة النظر اليها بل أنه ترك لها القهوة بما فيها ومن فيها . . ! هذا ما بدا الى ذهنها . . يا لخيبة الأمل ! .

شعرت عندئذ الفتاة بألم ثم بغيظ . فأغلقت النافذة بحركة غضب قوية وذهبت ذهاب من أقسم ألا ينظر من النافذة بعد الآن . وذلت كبرياء الأنثى فيها فشعرت كأن الدموع ستنحدر من مآقيها . . ولكنها تجلدت إذ ذكرت أن ليس بينها و بين هذا الشخص ما ترجوه منه أو تيأس . . ومن هو ؟ وما قيمته ؟ وما شأنه عندها حتى تهتم به الى هذا الحد . . . وقامت الى البيانو وجعلت توقع عليه متناسية كل شيء . .

وعندئذ مر بخاطرها طيف محسن الباهت . . .

ما أحسنها فرصة لو عاد اليها محسن تلك اللحظة . . . تلك هى الساعة المثلى لكسب رضاء امرأة . . . ولكن وا آسفاه ! . . . كان محسن فى تلك اللحظة بالضيعة بين حقول البرسيم الأخضر ينتظر خطابها الذى لن تكتبه .

الفصل السابع عشر

فى اليوم التالى أتى مصطفى القهوة كعادته . . لكن فى هيئة لو رآها صاحب القهوة أو أحد ممن اعتاد رؤيته كل يوم لأيقن أنه قد اعتنى بملبسه اليوم على نحو خاص وأنه ولا شك وقف أمام المرآة زمناً غير قصير قبل أن يأتى . وأخذ مصطفى مكانه غير أنه أحس كأنه يغشى القهوة لأول مرة . فقد أجال بصره فيها فى شىء من الحياء وقد خيل إليه أن جميع من بها حتى الحاج شحاته وصبيانه ينظرون إليه ويعلمون ما جاء به اليوم أو على الأقل يدركون لماذا يعتنى اليوم بمنظره . إلا أنه ألفى نفسه وحيداً كالعادة على رصيف القهوة لا ينظر إليه أحد فاطمأن . ولبث لحظة كأنما يقاوم نفسه وأخيراً رفع بصره إلى شرفة الدكتور حلمى فى تورع وأدب ووجفة . . . ثم خفض فى الحال عينيه على صوت أحد صبيان القهوة يسأله عما يطلب ، فطلب قدحاً من الشاى بلهجة ميكانيكية سريعة ثم عاد فنادى الغلام ناسخاً ما قال وطلب زجاجة غازوزة « سباتس » وهو لا يدرى لماذا عدل عن الشاى اليوم ولماذا بدل به الغازوزة إلا أن تكون فكرة التغيير السابحة فى مجاهل نفسه أوحت بذلك وهو لا يعى . ولم يكن صبى القهوة أقل منه دهشة . . لا فقط لأن « الزبون المعتاد » غير طلبه فجأة بل أيضاً لأن كلمة « سباتس »

فى هذه القهوة شبه البلدى ليست على لسان زبائن المحل كثيراً ! . وأن هذا الصبى لم يعتد نطقها كما اعتاد نطق « واحد شيشه » أو «واحد ساده» أو « واحد شاى » حتى واحد « لكوم » أو واحد « بسطه » : لذلك أدار ظهره واكتفى بأن صاح قائلاً :

— واحد كازوزه ! . .

وعاد مصطفى إلى نفسه يسائلها وقد علم من نظرته إلى الشرفة أن ليس بها أحد وأن نوافذها مغلقة . . .

ترى أيأمل فى رؤيتها مرة أخرى أم أنها كانت مصادفة مرت أمس ولن تعود ؟ ومن ذا الذى يضمن له أنها ستبرز مرة أخرى ؟ ومن يدريه . . فقد يمكث شهوراً دون أن يراها فى الشرفة ؟ ألم يسبق أن جلس فى هذه القهوة شهوراً فلم يلمحها إلا أمس ؟ أين كانت طول تلك المدة ؟ وأين كان هو ؟ وإذا كان ما فات مات ولا داعى لإثارة الندم على الماضى فهل يأمل فى المستقبل ؟

واضطرب لذكر كلمة المستقبل إذ أدرك فجأة الآن لهذه الكلمة حقيقة ملموسة . إلا أن الشك والقلق عاوداه وخطر له أنها قد تكون زائرة جاءت أمس هذا البيت وانصرفت على أن لاتعود وان عادت فمن ذا يعلمه ! إنه لا يعرف بعد من هى ؟ واسود لهذا الخاطر . إذن لن يراها اليوم ؟ وإذن جلوسه الآن بالقهوة على غير جدوى . . . وانتظاره عبث ؟

فتململ فى مكانه وأخرج منديل الصدر الجميل الذى بلون بذلته فمسح

به جبينه ثم شمر عن معصمه الأيسر ونظر فى ساعة اليد الذهبية وقد خيل إليه أنه جلس قرناً . ثم تأكدت فى رأسه فكرة أنه لن يراها اليوم. فتحرك فى كرسيه قائلا فى نفسه أنه ما دام يعلم ذلك فلماذا يجلس بالقهوة الآن ؟ ونسى مصطفى أنه كان يجلس بالقهوة دائما بغير ماغرض وأنه كان ينفق فيها الساعات الطوال فما تململ كما فعل اليوم ولم يمض على جلوسه ساعة . . !

وأخذ يضيق ذرعه ويشتد يأسه كلما مر الوقت . . وآلمه الانتظار وهو يقسم أن سينهض بعد خمس دقائق إن لم تظهر . وتمضى الدقائق الخمس فيطمعه الأمل فيجدد المدة ويمد الأجل فلا تظهر فييأس ويتحرك للقيام ثم يعود يجدد المدة ويمد الأجل مرة ثالثة ورابعة وخامسة . . يتعلل تارة بالغازوزة التى يتمهل عمداً فى شربها وتارة بأن الوقت فسيح وأن ساعة القهوة لم تدق بعد النصف وأنها متى دقت النصف قام . يقوم إلى أين ؟ . . وهوالذى فى مثل هذه الساعة دائماً بالقهوة لايفارقها ؟ لايدرى . المهم . لابد من القيام لأنه انتظر فوق ماينبغى وأن لعذاب الإنتظار حداً . وإن لم يكن من قبل يفكر فى القيام بهذه السرعة فلأنه لم يكن ينتظر شيئاً . ومن لاينتظر شيئاً يستطيع أن يقعد العمر حتى العفن وحتى يأكله الدود وهو فى مكانه . إلا أن تنهضه الرغبة فينشط ويدب فيه الإحساس بالزمن والحياة . من لاينتظر شيئاً ومن لايرغب فى شىء هو الميت وحده . لذلك ماتأخر مصطفى . ودس يده فى جيبه مخرجاً النقود لصبى القهوة إنفاذاً لإرادة صبره النافد . . وعندئذ بلغ مسمعه صوت نافذة تفتح بعنف . . وآذان

مصطفى الآن كآذان القط متربصة لقنص كل صوت مهما دق لاسيما صوت النوافذ والشرفات . . فرفع بصره إلى شرفة الدكتور حلمى فى حركة غريزية. فإذا هو يراها « هى » . . وكان ذلك فجأة . وكان ذلك فى ساعة يأسه وقلقه فما تمالك قلبه أن دق وابتسم لها ابتسامة ارتسمت رغماً عنه . . كأنما هى دفعة الفرح والخلاص من شكه ماحمله على ذلك . والواقع كانت ابتسامة خالصة صادقة فيها معنى الابتهاج الشريف لامعنى المغازلة المبتذلة . وليس أدل على ذلك من صدورها عن غير وعيه كأنما انطلقت تعبر عن شعور داخلى قوى ، فهو لم ينتبه لها ولا لنفسه إلا ساعة أن رأى النافذة تغلق فى وجهه جواباً عليها .

يا لسوء الطالع ! أهو مجنون يبتسم فيضيع كل شىء ؟ ما أحمقه ولكنه لم يتعمد شيئاً . إنه معذور . هو سوء الحظ لا أكثر ولا أقل .

أسف مصطفى كثيراً وأنب نفسه كثيراً وخشى أن يكون قد نفرها منه . وود أنها لم تبرز اليوم . ومع ذلك فقد أحس مصطفى ارتياحاً فى أعماق قلبه : لقد زال شكه قطعاً . وأيقن أنها ليست زائرة ولا غريبة بل هى فى البيت دائماً ، فى هـذا البيت الذى يراه أمامه ويقطن بجواره . وله شرفة مكشوفة صغيرة تحاذى إحدى نوافذه . حسبه هذا سعادة اليوم . وإذا كان قد أغضبها بابتسامته فعساها تصفو يوما .

على أى حال هو مبتهج اليوم بهذه النتيجة : إنها فى هذا البيت دائماً وإنها تفتح نافذة الشرفة غالباً . . وستفتحها كالعادة . . طبعاً إنها لن تحرم

نفسها النور والهواء من أجل « مغفل » ابتسم لها من قهوة الحاج شحاته الحقيرة ! قهوة الحاج شحاته الحقيرة ؟! للمرة الأولى خطر لمصطفى فكرة احتقار تلك القهوة . وإذا هو يفتح عينيه حواليه وينظر نظرة المنتقد المشمئز إلى موائدها الخشبية وكراسيها القديمة وذلك المصباح الغازى الكبير « الكلوب » المتدلى فوق « يافطة » قد محاها التراب والزمن فلم يبق من « قهوة النجاح الكبرى لصاحبها شحاته محمد » سوى كلمة شحاته وكلمة قهوة . . .

وألقى نظرة شاملة داخلها من خلال العوارض الزجاجية المكسور أغلبها فرآى الزبائن الجلوس وضجيجهم وصوت حجر « الطاولة » و« الضمنو » . فدهش كيف أنه استطاع طول تلك المدة الجلوس بجوار هذا المزاج الخليط بين أفندى ومعمم وملبد كلهم من أهل الطبقة الصغرى . وإذا صوت المعلم شحاته يصيح فى الداخل « ولعة للشيشة يا جدع ! » وإذا أحد الصبيان يمر أمامه لابساً « العنترى » البلدى و« اللاسة » ولكى يبرهن على رقى القهوة أضاف إلى هذا الزى « فوطة » ووضع فى أذنه اليسرى وردة وقطعة من العتر الأخضر . وحانت من مصطفى التفاتة إلى ما فوق المائدة أمامه : الصينية الصفيح وعليها كوب مرسوم عليه أزهار ملونة محاها كذلك القدم وكثرة الغسيل ثم زجاجة « سباتس » المزعومة . فأيقن أنها قهوة « شلق » صحيح ! . . .

ولكنه ذكر قرب القهوة من منزله فأدرك سبب اختلافه إليها . وفى

تلك الثانية مرت برأسه صورة كان قد نسيها . . . صورة ذلك الأفندى الطويل العريض ذى الشوارب السوداء المنتصبة الذى كان يتردد على نفس القهوة ويأخذ مجلسه أمامه منتفخاً كالديك . . ولا يزال طول مكثه يملأ الدنيا ضجة كاذبة بأمره ونهيه وحركات العجرفة والتيه المتكلفة المضحكة ولا يزال يرفع بصره إلى الشرفة الخاوية حتى ييأس فيقوم . . . ضحك مصطفى فى نفسه الذكرى تلك الصورة التى طالما سرته وألهته . . لكنه ما عتم أن أظلم وجهه قليلا فى الحال وأصابته خشية إذ أدرك الآن لمن كان يأتى هذا الرجل ؟ لا شك أن هذا الرجل رآها مرة كما رآها هو أمس . . إن هذا الرجل يقطن نفس المنزل الذى يقطنه هو . . وقد قابله يوماً فى السلم نازلا من الطابق العلوى . إذن مركزه هو كمركز هذا الرجل تماماً من كل الوجوه ؟ . فقط . . قد سبقه هذا الرجل فى ترصد الشرفة . وها هو هذا الرجل يختفى منذ زمن هاجراً القهوة . . ولعله لم يصب منها غير الخيبة واليأس . وإذا كان هذا السابق قد خاب أفلا يخب هو اللاحق أيضاً ؟ هذا مؤكد . وقد بدت تباشير الخيبة ولما يمض على فرحته ثمان وأربعون ساعة ! ! ألم تغلق فى وجهه النافذة اليوم ؟ ! دب شىء من القنوط فى قلب مصطفى . ومصطفى ككل شاب لم يعرف المرأة ما استطاع أن يرى فيما حدث إلا إعراضاً وصداً يوجبان القنوط . . . فأطرق لحظة فى كآبة يسائل نفسه عما يصنع . . وهل يترك الأمل قطعاً ! وما الذى يصير إليه إذا أيقن ألا محيص من الرجوع إلى ما كان عليه من حياة فارغة ؟ وهاله مجرد تصور

حياته الماضية كما لو أن ما بينه و بينها هوة مع أن ما يفصله الآن عنها لا يزيد على يوم !. أيعود فيعيش كما كان يعيش قبلاً ميتاً لا ينتظر شيئاً ولا يأمل فى شىء ولا يخفق قلبه لشىء ؟ هل هذه تسمى حياة ؟ أو يستطيع العودة إليها بعد أن علم ... إن عذره إذ تحملها فيما مضى كان الجهل .. أما وقد رأى بعينيه أن هناك نوراً . . . ورفع يده فى حركة ضيق ونادى صبى القهوة ودفع إليه ثمن ما شرب ثم نهض بدون أن ينظر إلى الشرفة نظرة أخيرة وكأنما منع نفسه عن النظر بكل إرادته . وسار على غير وجهة مقصودة مطرقاً و يداه فى جيبه وهو يسائل نفسه مردداً : إن مصيرى ومصير الرجل «إياه» واحد ولا بد يوماً من الاختفاء بدورى وهجر القهوة ! . . إلا أن الأمل مالبث أن عاوده . . . وجعلت النفس المتملقة تخلق له كل ما يسره و يطمئنه من أسباب . . . فأخذ يستعرض فى مخيلته صور سليم المضحكة مكبراً مجسماً ما فيها من هزل وهزء حتى بدا لعينيه شخصا غير خليق بعطف فتاة جميلة رقيقة . . وأخذ يقيس نفسه به ويقارن ما بينهما من وجوه شبه ومن فوارق . . . إلى أن خرج من ذلك كله بنتيجة فى مصلحته . إن هذا الرجل لا يشبهه فى شىء ، ولا يمكن أن يجرى عليه ما جرى على هذا الرجل . إنه ليس مثله ولا نظيره ولو كان كذلك حقاً لألقى بنفسه فى البحر من زمن طويل . . ! !

نعم لكان ألقى بنفسه فى البحر من زمان ! ! !

وكأنما أعجبته هذه الجملة . . . وكأنما استراح عليها . . فجعل يرددها لنفسه بنطق واضح واقتناع :

— صحيح ! كنت رميت نفسى فى النيل من زمان !

وهكذا استطاع هذا الانسان القلق بجملة كهذه أن يعيد إلى نفسه بعض الاطمئنان والراحة . . . ويتخيل النور قد بزغ أمام بصره من جديد . . .

الفصل الثامن عشر

لو أن مصطفى ساعة أن ابتسم لسنية رفع بصره إلى نافذة جيرانه القاطنين فوقه لأحس أشعة عيون نارية تنفذ إليه من خلال العوارض الخشبية . تلك عيون زنوبة التى ما فترت عن مراقبته ومراقبة سنية منذ يوم الشجار . ولعلها أول من رأى وأدرك تحسن هندام مصطفى وسببه فى ذلك اليوم . ولعلها كذلك الوحيدة التى باغتت على شفتى مصطفى تلك الابتسامة الموجهة إلى سنيه . . .

وهذا يكفيها . مصطفى يبتسم لسنيه وهى تبتسم له !!! الله ! .. الله ...

وانتظرت حتى اجتمع « الشعب » ما خلا محسن الغائب فى دمنهور وأخبرتهم بما رأت مبالغة فى الخبر مضيفة إليه كل ما تتصور أنه سيكون وهل بعد الابتسامة إلا المقابلة والمراسلة ؟ ؟ لقد نهض مصطفى أمامها بعد ذلك فإلى أين ؟ إن لم يكن إلى حيث يلقى من ابتسم لها الساعة ؟ وتصادف بعد قيام مصطفى بقليل أن شاهدت زنوبة جارية سنية تخرج فى إزارها لقضاء حاجة فتصورت زنوبه أن سنية شيعت جاريتها وراء مصطفى ، فأضافت ذلك إلى مجموعة ما رأت بعينيها قائلة لعبده وسليم الساهمين :

— أنتم نايمين ؟ طيب دى المراسيل رايحه جايه أربعة وعشرين قيراط بالمفتشر كده فى الضهر الأحمر . . ! ! .

وهكذا أنزلت الطامة على هذين الأخيرين كما أثارت الدهشة عند حنفى ومبروك اللذين استغربا إمكان حدوث كل هذا بتلك السرعة . . . لا سيما ومصطفى شاب لم يسمع له صوت ولم يحس وجوده طول مدة إقامته ! . .

و بعد أن استوثقت زنوبه من قوة الأثر الذى تركته فيهم . اقترحت عليهم تحرير خطاب إلى والد سنيه المسئول عن سيرها شرعاً حتى يوقفها عند حدها . هذه هى الطريقة المثلى والوحيدة . وهذا هو الواجب عليهم معشر الجيران المخلصين . . والنبى أوصى بسابع جار ! ! ! ووافق سليم أولا مدفوعاً بما طرأ عليه فجأة من غيظ وقبل أن يكتب هو الخطاب . ولكن عبده هاج كامن غضبه العصبى وانفجر يصيح وكأنه وجد منفذاً فى هذا الصياح :

— مفيش جواب ينكتب ! مفيش جوابات تروح ! إن كنت صحيح رجل و يوزباشى انزل للرجل اللى تحت . . . قسما بالله العظيم ما ينكتب جواب .. دا جبن .. أنا لا أسمح بالجبن ده أبداً . . .

مفيش جواب . . . أنا أعرف شغلى . . .

فقال له سليم :

— تعرف شغلك ازاى ؟ تعمل ايه ؟ تضربه ؟ . . .

وقالت زنوبه وقد لمعت عيناها تشفياً :

— اعمل اللى تشوفه . . . لكن برده الجواب ضرورى .

فصرخ فيها عبده :

— اسكتى . ! .

ثم التفت إلى سليم وقال :

— أنا بقول لك جبن . . . نداله . . . دى أمور نسوان . . .

وأخيراً اقتنع سليم بكلام عبده . وعبثا حاولت زنوبه حملهم على كتابة ما تشتهى . وعند ذاك جاءتها الفكرة أن تستكتب سرا كاتبا عمومياً من أولئك المرابطين دائما والناصبين خيامهم ومكاتبهم أمام محكمة السيدة . . ولم تكذب والتفت بإزارها الأسود وخرجت عصر ذلك اليوم خفية الى ذلك الكاتب . وكيما تخفى عنه غرضها الأصلى جعلت كأن غايتها التي أتته من أجلها استكتاب خطاب عادى لمحسن . . حتى إذا ما تم خطاب محسن تظاهرت بفكرة عارضة هى استكتاب الخطاب الغفل . . .

***

فتحت سنيه عينيها فى صباح اليوم التالى وابتسمت للنهار وظلت فى فراشها تفكر فيما كان من أمرها أمس وفى السعادة التى تنتظرها اليوم . وهل يمكن أن ينتظرها شىء غير السعادة منذ اليوم ؟ إنها كانت تجهل أن الحياة حلوة هكذا ! انها عاشت سبعة عشر ربيعاً لم ينكشف لها أثناءها عن جمال الدنيا إلا اليوم . . . كل شىء جميل فى هذا الصباح . . . وكل شىء يبتسم . . .

أكل هذا لأن مصطفى ابتسم ؟

إنها رأت كثيرين يبتسمون لها ... فى الطريق . . . أو فى الترام وهى مصطحبة جاريتها بخيته فى ذهابها و إيابها إلى عيادة طبيب الأسنان الذى يباشر حشو أضراسها التى أثر بها أكل « الملبس » والحلوى ! ! . بل إنها رأت بالأقل بسمات سليم ومحسن . . ولكنها لم تحس ما أحست عند ابتسامة مصطفى : كأن هذه الابتسامة قلبت كل حياتها وغيرت الدنيا فى نظرها فبات كل شىء يبتسم أمامها وحولها . . .

ومع ذلك فقد استقبلتها بغلق النافذة فى وجهه ! .

ضحكت سنيه عن نواجذها اللؤلؤية لدى هذه الصورة .

وأفعمها ارتياح وسرور ولذة داخلية إذ عاملته هذه المعاملة الخشنة . وتساءلت فى نفسها مبتهجة عما عساه يقوله عنها الآن ؟ ثم ختمت ضحكها بأن قالت فى صوت يتهدج لذة :

— مسكين !

ومع ذلك فقد كان يقاسم قلبها عاطفة أخرى متناقضة . . هى عاطفة ندم و إشفاق وقلق . . . إنها تخشى أن تكون إساءته أكثر مما ينبغى ، وأن تكون صدمت إحساسه على نحو عنيف . . .

ونمت عندها هذه العاطفة ، فجعلت تؤنب نفسها أو تتظاهر بتأنيب نفسها إذ في الواقع كانت عاطفة السرور بجفائها واللذة بقسوتها ما زالت تداعب أطراف قلبها . غير أنها وجدت الحل أخيراً ، وأمكنها التوفيق بين هاتين العاطفتين المتضار بتين ظاهراً . . سوف تعوضه عن الإساءة ، نعم سوف

تظهر له شيئاً من حسن المعاملة . أو على الأقل سوف لا تصدم شعوره بعد اليوم . هذا الشاب المسكين اللطيف ! .

وابتسمت . . .

و بلغت أشعة الشمس وسادتها ولمع فى ضوئها شعرها الأبنوسى . وأحست الحرارة فرفعت يدها الناصعة إلى رأسها تتقى بها . غير أنها ذكرت الوقت وأدركت أنها تأخرت فى فراشها اليوم على غير عادتها فنهضت فى الحال وسارت بأقدامها البيضاء العارية على بساط الحجرة ووقفت أمام المرآة فى قميص نومها الحريرى . وكان شعرها الذى لم يرتبه بعد مشط الصباح قد تدلى فاحماً جميلا يغطى عينيها فهزت رأسها هزة وضعته فى مكانه وانزاح عن بصرها ذلك الستار الكثيف فرأت فى المرآة صورة تأملتها طويلاً فى عجب وهى تقلبها ببطء على كل الأوضاع . كيف ؟ أهذا الجيد المرمرى لها ؟ وهذان النهدان القائمان يبدو ظلهما واضحا خلف قميص الحرير ؟ وهذا الخصر الذى تحوطه بيدها من فوق القميص لتتبين دقته فى المرآة . ! ياللعجب ! . ما كانت تعلم أنها بهذا الجمال كله ؟ !

وابتسمت أيضا لظلها . . .

ثم تناولت المشط وأعملته فى شعرها وهى تتأمل وجهها وشفتيها راضية عما ترى . . ثم طفقت تترنم بأغنية من تلك الأغانى القصيرة المرحة المسماة «طقاطيق» وهى تخلع ثوب النوم لترتدى ثوب البيت . . .

وانتهت سنيه من أمر ملبسها وزينتها واستغرق ذلك منها اليوم زمناً

أطول من المعتاد . ونظرت إلى خيالها فى المرآة نظرة أخيرة ثم مشت إلى باب حجرتها فى خطى لطيفة كخطى طائر جميل وكأن كل شىء فيها قد لطف اليوم ورق أضعاف ما كان عليه من قبل . فهى الآن نفساً وجسداً كالفراشة البديعة لاتتحمل اللمس . ولعله الابتهاج المضىء والسعادة النورانية ما يشعرها بخفة وزنها وبأنها اليوم نفس طائرة أكثر منها جسما كثيفا . . .

ولكنها ما كادت تفتح باب حجرتها وتخرج إلى الردهة حتى وقفت واجمة وساورها خوف لا تدرى سببه . . فقد سمعت لغطا بين والدها ووالدتها ينبىء بغضب هائل .

وكان باب حجرة والدها التى ينبعث منها الصوت مغلقا فلم تستطيع تمييز الكلام . . . إلا أنها كانت تسمع بوضوح بين آن وآخر اسمها يردد ثم كلمة « بنتك » يلفظها والدها فى عنف مخاطباً والدتها . فجمدت سنيه فى مكانها باهتة وقد أيقنت أن شراً ينتظرها ولم يكن لديها وقت للتفكير ولا لتملك نفسها بأن صوت والدها مالبث أن انفجر فى رعد مخيف ثم فتح الباب بقوة كاد ينخلع منها . . وبرز والدها وبيده خطاب . فما رآها أمامه فى الردهة حتى صاح :

— أنت هنا ؟

ثم لم يلتفت إلى وجه ابنته الأصفر ولم يمهلها حتى تجيب بل مد فى الحال يده إليها بالخطاب صارخا :

— خدى . ! . خدى اقرى ! اقرى وقولى لى الكلام المكتوب هنا معناه ايه ؟ ؟ ؟

فلم تتحرك سنيه ولم تتناول الخطاب لأنها كانت لاتقوى على شىء . ولكن والدها الغضبان الهائج تقدم إليها وقد اشتدت سورته وعندئذ ظهرت الأم وصاحت به وحاولت أن تجذبه القهقرى فلم تفلح . . فأرادت أن تتوسط بينه و بين ابنته لتحميها فدفعها عنه بعنف واقترب من سنيه وجذب ذراعها وتناول يدها بخشونة وأقبضها على الخطاب وهو يصرخ :

— قلت لك اقرى الكلام المكتوب هنا .. ! إقرى الكلام المكتوب هنا ... أنا رجل عشت طول عمرى بالشرف ! أنا سافرت السودان وحضرت مواقع حربية . . .

ولم تستطع سنيه احتمال أكثر من ذلك . . فإن قواها تخاذلت وكادت تسقط على الأرض لو لم تسرع إليها أمها وتتلقاها بين ذراعيها وهى تنظر إلى زوجها شزرا قائلة :

— ما تسكت بقا يا راجل ! . . هى يا كبدى تقدر تستحمل الكلام ده كله ؟ ؟

ولكن الوالد لم يسكت بل ازداد ثورة وعاد إلي ذراع ابنته المتخاذل يهزه بشدة و يدعوها أن تقرأ الخطاب . فأبعدت الأم يده عن ابنتها ثم أخذتها وهى بين ذراعيها إلى أقرب مقعد . وعندئذ دنا الوالد و رفع الخطاب إلى عينيه وقال صائحا :

— مش راضيه تقريه ؟ أنا اقراه . . . اسمعى . ! !

حضرة المحترم الأمجد الدكتور حلمى دام

بعد السلام نخبركم أن علاقات الهيام سائرة على مايرام بين سنيه هانم كريمتكم و بين رجل من زباين القهوة التى أمام منزلكم العامر . والإشارات والمراسلات لا تنقطع بين البلكون والقهوة . وقد أحطنا كم علماً لما لنا فيكم من العشم ولغيرتنا على حسن سمعتكم وحرصنا على شرف اسمكم والسلام ختام ؟ كاتبه

صديق مخلص

وما جاء الوالد على آخر المكتوب حتى صرخ فى ابنته :

— ضيعت اسمى ! . . دنست شرفى . ! . شرفى العسكرى . . تضيعى لى اسمى بعد ماحضرت موقعة أم درمان . . .

ولم يتم جملته لأن سنيه على ضعفها وهى مغمضة العينين ورأسها على صدر أمها أخذت دموعها تسيل خطوطا على خدها فى صمت ولمحت أمها تلك الدموع الصامتة فجأة فتحرك فيها الحنو إلى حد هائل فثارت فى وجه زوجها وصرخت :

— اسكت . ! اسكت بقا بلا أم درمان بلا أم عمران . . ياراجل انت رايح تموت لى البنيه اللى حيلتى . . وابقى افرح بك . ؟ ! دى اسم الله ماتستحملش كده أبداً . . . حرام عليك ! . .

ثم رفعت بصرها إلى السماء ثم ألقته على زوجها وقالت :

— والنبى مظلومه ! واللى ظالمها يقعد له ويقعد لعياله . ! يقعد لك . . ويقعد لعيالك وعينك وعافيتك ببركة دى الصباح ، ياللى كتبت دى الجواب ! !

فقال الوالد بحدة :

— يعنى بنتك ماوقفتش فى البلكون . . ؟ ؟

فأجابت الأم على الفور :

— أبداً . . أبداً ! ! يا فتاح يا عليم ! بلكون . . قطع لسان اللى يقول كده . . !

وكأن إلهاماً برق فى رأسها . . . فقد خطر لها فى الحال أن هذا الخطاب الغفل لابد أن يكون من طرف زنوبه . نعم لأن سبب الشجار بينها وبين سنيه لم يكن غير ذلك ، ولأن هذا الشجار لم يمض عليه وقت طويل فينسى من القلوب . إذن هى زنوبه التى فعلت ذلك مدفوعة بعامل السخط على سنية .! وكأن الأم وجدت وجهاً للدفاع عن ابنتها وبرهاناً قاطعاً على براءتها فأبرقت أسرتها وانتصبت فى جلستها تمهيداً للكلام القاطع . غير أن زوجها تذكر فى نفس الوقت الخطاب الآخر الذى وقع فى يده وكان ممضى باسم اليوزباشى سليم . . ذلك الخطاب الذى لم يطلع عليه ابنته بل رده بالتالى إلى كاتبه . لم يبق عنده شك إذن فى صحة الخطاب الأخير . فأن أحد الخطابين يؤكد الآخر . . .

فالتفت عند ذاك إلى زوجته وقال لها بعنف :

— طيب وجواب اليوز باشى . . . ناسياه ؟ !

فبغتت الأم وكانت على وشك الانتصار . . ونظرت إلى زوجها قائلة فى شىء من الحيرة :

— جواب اليوز باشى . . دا إيه راخر . ؟ .

ثم ذكرت ذهابها إلى زنوبه تشكو إليها قريبها سليم بعد أن أطلعها زوجها على أمر خطابه . إذن ليس لها وجه للأنكار . . .

وتفكرت قليلا . وفجأة لمعت عيناها . . فقد وجدت ما تقول : إن المصائب كلها جاءت من زنوبة وأقارب زنوبة . وما الخطاب الأول والخطاب الثانى إلا من ناحية زنوبه النحس وهل جاءت كلمة واحدة أو رائحة خبر واحد من جهة أخرى غير جهة زنوبه . ؟ .

وما دام الأمر مقصوراً على زنوبه .. وما دام قول زنوبه لا يعتد به لأنها خصم والعلاقة بها مقطوعة . . فأى قيمة إذن لهذا الخطاب الغفل الذى هو منها بلا شك ! ؟ وغير زنوبه لا يجرؤ على فعل هذا . ! .

هذا خلاصة ما انفجرت به الأم وما قالته لزوجها بعد أن أخبرته تفصيلا بأصل العلاقة بزنوبه و بسر القطيعة بينهما . . وأنها هى التى كانت تنظر إلى القهوة من البلكون كلما جاءت زائرة . . حتى عنفتها سنيه على ذلك ذات يوم فغضبت وسبت وشتمت وانقطعت . . وها هى أخيراً تلجأ إلى الصاق كل ما فيها بسنيه . . .

وختمت الأم قولها ودفاعها المفحم بأن رفعت ذراعيها عالياً نحو السماء ودعت بحرارة :

— إلهى يوريك يا زنوبه ! إلهى يجازيك على قد عملتك . ببركة دى الصباح الكريم ! . .

هدأ ثائر الوالد . وبدا على وجهه الاقتناع . وجعل يقول عن زنوبه مردداً :

— يا سلام ! . . دى لازم واحده شريرة !

فأردفت الأم على الفور :

— قوى . . قوى معلوم ! هى دى ربنا رايح يغضب عليها أكتر ما هو غضبان ؟ ربنا ما يحكم على حد . . . دى لا جمال ولا مال ولا حلاوة لسان . عمرها النهار ده فوق الأربعين ولسه بسلامتها بنت بنوت ! . .

وطفق الوالدان يتحدثان عن زنوبه برهة . . .

ثم التفت الوالد إلى ابنته فرآها مغمضة العينين فتناول يدها فى لطف يجس نبضها . . ثم همس الى والدتها أن تنقلها إلى فراشها تستريح قليلا . فهى فى صحة جيدة . . لكن ينقصها شىء من راحة النفس والجسم وأعقب قوله هذا بتمزيق الخطاب الغفل إرباً إرباً . . وهو يستنزل اللعنة على تلك المرأة الشريرة زنوبه التى تسببت فى كل هذا . . .

الفصل التاسع عشر

يا للعجب ! مضى أسبوع كامل ولم يبد لسنيه أثر فى الشرفة الخشبية : ترى ماذا حل بها ؟ أمريضة ؟ أهى قد نفرت بتاتاً وانقطعت إلى الأبد بعد تلك الابتسامة الملعونة ؟ ! هذا ما كان مصطفى اليائس يناجى به نفسه فى القهوة بعد مداومة الترقب والانتظار أسبوعاً كاملا على غير طائل . صحيح . تجنبت سنيه الشرفة طول هذه المدة . ولكن لا لأنها مريضة ولا لأنها نفرت بتاتاً . بل لأن كلام والدها وما جاء بالخطاب الغفل أثرا فى نفسها . لقد ساءها أن تدخل القلق على أبيها المتقاعد المطمئن ... وأن تجعل هذا الشيخ العسكرى فى أواخر أيامه يحسب ابنته لم تحافظ على شرفه .

كل هذا من أجل ابتسامة رجل ؟

وتأملت أمرها طويلا فإذا هى تذكر أن هذا الرجل لا تربطها به صلة . ولا تدرى شيئاً عن دخيلة قلبه ولا عن خلقه . . بل إنها لا تعرف من هو وماذا يصنع ؟ إنه أجنبى عنها تماماً . فلماذا تتجشم كل هذا من أجله ؟ وما الذى صنعه هو من أجلها . . . إلا تلك الابتسامه ؟ أفتاة شريفة تهتم برجل كهذا ؟ وأحست شيئاً فى نفسها لم تتبينه من قبل : انها لم تعد تلك الفتاة الطائشة اللعوب التى تنزع إلى المداعبة واللعب مع كل رجل تصادفه ولا تلك الفتاة التى تطالبها الطبيعة بحق الشباب الملتهب ويدفعها القلب

الناشىء فتجرى فى كل مكان ناظرة إلى كل شئ باحثة قلقة غير مستقرة .

لا إن سنية الآن خطت هذا الطور .. وانتهت من القلق إلى العقيدة . عقيدة المرأة فى الغرض من الحياة . أدركت بوعيها الآن لماذا تحيا المرأة . وبماذا تحيا ؟ !

إن تربية سنيه وثقافتها لا تزيد على تربية وثقافة زميلاتها المتخرجات معها فى نفس مدرسة البنات . وقد تكون مطالعتها للقصص أفادتها بعض الفائدة فى إنماء مداركها وتجاربها النظرية غير أن العقيدة لا تكتسب بالمطالعة وحدها .. بل بالتجربة والإحساس المباشر ولقد قرأت سنيه كثيراً عن الشرف والفضيلة فلم يبزغ أمام بصيرتها معناها إلا اليوم . فإذا بوعيها يهتف لها بتلك الحقيقة :

« ليست الفضيلة عند المرأة ألا تحب أبداً . بل الفضيلة أن تحب حباً سامياً رجلاً سامى القلب والأخلاق » .

ولكن هل مصطفى رجل سامى القلب والأخلاق ؟

هذه هى المسالة . وهذا موضوع شكوكها الحاضرة وما حملها على الابتعاد عن رجل تشك فى أمره ولا ندرى عنه إلا أنه ابتسم لها ...

وهكذا تجنبت فى الحقيقة الشرفة وانعكفت أغلب وقتها تتأمل وتفكر وحيدة فى حجرتها . وكثيراً ما كانت الدموع تخفف عنها وتمدها بالسلوة الوحيدة . إنها كانت تبكى لأنها لاتستطيع أن تجيب على سؤالها المتشكك . ولا تريد أن تبرز له أو أن تستعمل تلك الأساليب الحمقى والدعايات

والإشارات السخيفة لأن ما أدركته اليوم من حقيقة قلبها يرفعها عن كل هذه الأشياء ويجعلها لا ترى شيئاً خليقاً بنبل عواطفها غير العزلة والدموع ..

* * *

للمرة الثالثة أقسم مصطفى أن يهجر القهوة إلى الأبد إذا هو لم ير سنية . وها قد أشرف على أسبوع جديد فهل يبر بقسمه أو يحنث فيه كسابقه ويمد الأجل أسبوعاً آخر ؟ نعم لقد انتقل الآن تجديد الآجال ومدها من الساعات والأيام إلى الأسابيع ولكنه فى هذه المرة عزم العزم الأكيد على أن يكون هذا النهار آخر عهده بالقهوة . نعم لا تردد ولا ضعف ولا هوادة بعد الآن . فقد تأمل هو الآخر أمره ملياً وذكر أنه يعلق أهمية صبيانية وآمالاً سرابية على لاشىء . ماذا دهاه ؟ وماذا حدث فى حياته من تغيير ؟ أمجرد أن يلمح فتاة فى نافذتها — التى أغلقتها فى الحال فى وجهه — كاف أن يكرس كل هذا الزمن وهذا الفكر فى سبيلها ؟ من هى وأى صلة تربطها به ؟ لا شىء . حتى اسمها لا يعرفه . بل إن شعورها نحوه قد ظهر : إنها لم تلتفت إليه قط . . ولا ترى فيه إلا رجلاً وغداً من أهل هذه القهوة الحقيرة . فلو أنها أبدت فقط إشارة صغيرة أو قرينة واحدة على أنها أحست وجوده لكان اعتبر ذلك رباطاً وصلة بينهما بل لكان عده عهداً وميثاقاً . ولكن ماذا يقول لنفسه الآن . ؟ وبماذا يطمئن قلبه القلق . . وقد انقطعت بعد غلق الشرفة الخشبية كل صلة حتى صلة الهواء الذى ظن أنهما يستنشقانه سوياً . فلأى شىء إذن يعلق أملاً عليها ؟ ثم من يدريه .. لعلها برغم جمالها من

طراز أولئك الفتيات البلهى أو النزقات اللاتى لا يعرفن من شئون العاطفة العميقة شيئاً . فمن أين عرف أن لها قلباً وأنها تستطيع أن تفهمه وأن تفهم ما به ؟ . .

وانتهت به التأملات والشكوك إلى العزم على هجر القهوة . نعم لا مناص من هجره القهوة كما هجرها ذلك الرجل ذو الأكتاف العريضة والشوارب القائمة وعاودته مرة أخرى صورة هذا الرجل « سليم » . ولكنه فى هذه المرة أحس نحو هذا الرجل بعض العطف والرثاء .. وتخيله وقد اختفى يأساً بعد أن عالج لفت نظر « إلهة الشرفة » بكل ما يستطيع من حيل وأساليب و بكل ما حسبته عقليته القديمة ظرفاً ولباقة . . نعم إنه كان مضحكاً إلى حد المسخرة .. ولكن أليس مسكيناً ؟ أليس جديراً بالرحمة هو أيضاً ؟ . . لأنه أحب ورجا وأمل .. ثم خاب وقنط واختفى ؟ ؟ .

وجاءت تلك الصورة مؤكدة عزم مصطفى فألقى على الشرفة المظلمة التى لم تفتح منذ عشرة أيام آخر نظرة ونادى صبى القهوة بصوت قاطع كصوت المقدم على عمل خطير ثم دفع إليه بحسابه ونهض منتفضاً ونظر يمنة ويسرة يختار الطريق فى تردد كما لو أنه يختار الطريق الذى لا رجعة له .. ولكن فجأة ... خطر له ذلك الخاطر الذى يأتيه دائماً كلما نهض هذه النهضة .. فإذا هو يتراخى و إذا العرق على جبينه و إذا حماسته وحركته القوية وعزمه الأكيد يبدو له سراباً لا يقل استحالة عن السراب الذى يهرب منه .. يهجر القهوة ؟ حسن .. ولكن إلى أين ؟ إلى أين يذهب ؟

إلى المواخير والعاهرات أم إلى صحبة أولئك الأصدقاء الذين لايقلون سقوطاً عن الساقطات وهو الذى أحس أخيراً فى قلبه نبلاً واستكشف فى نفسه جمالاً ونقاء ما كان يعلم بوجودهما ! ! . أم أنه يذهب إلى قهوة أخرى من مقاهى حى السيدة محاولاً خلع تلك الفتاة من قلبه ؟.

يخلعها من قلبه — إذا أمكن — حسن . ولكن ما الذى يبقى له بعد ذلك ؟ وهو الذى بدأ يفهم قيمة الحياة على ضوء المرأة ؟. وما مصير قلبه الذى كان خامداً كالساعة العتيقة الواقفة . . فإذا هو الآن يدق دقات الحياة !! وهل ينسى لذة تلك الإحساسات الجديدة التى بعثتها فيه تلك الفتاة مذ ظهرت له ؟ كلا . محال أن يذهب كل ذلك . وما أبسط عقله إذا حسب مجرد القيام أو دفع الحساب إلى صبى القهوة ينهى كل شىء . بل ولماذا هو يفكر فى الذهاب ؟ هى ولا شك ثورة الأمل الخائب . ولكن لماذا يأمل ولماذا يقنط ولماذا تنتابه الشكوك فى شأنها ؟ حسبه منها أنها أوحت إليه — سواء قصدت أو لم تقصد — بتلك العواطف الجميلة النبيلة التى لم يوح بها إليه شىء أو إنسان قبلها . إنه سيمكث بالقهوة دائماً لا لينظر إليها ويترصدها بل ليغذى قلبه من جوارها : إن مجرد الفكر أنه بجوارها يكفى .

وعاد مصطفى فجلس وهو مرتاح النفس لهذه النتيجة . غير أنه عجب كيف أنه غدا هكذا « كالشعراء » فى عرفه ! ؟ !

* * *

ظل مصطفى يأتى القهوة كالمعتاد غير آمل فى شىء إلا فى فضل الله وحسن

لمصادفة . فكان يرى النافذة ما زالت مغلقة فلا ينزعج ولا يثور . إلى أن كان يوم نام فيه بعد الغداء كعادته فأرق فقام فارتدى ملابسه ونزل إلى القهوة قبل ميعاده يقتل فيها الوقت ويتناول فنجاناً من القهوة . . وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر . فما كاد الصبي يأتيه بالمشروب وينصرف عنه حتى لمح مصطفى امرأتين تخرجان من منزل الدكتور حلمى . وكانت إحداهما تبدو صغيرة رشيقة فى زى آخر طراز نسائى . . بينما الأخرى التى تتبعها جارية ملتفة فى إزار أسود . فلم يشك مصطفى فى أنها « هى » وخادمة لها خارجتان . فدق قلبه سريعاً دقات متتالية وتزاحمت فى رأسه خواطر مختلفة فيما يجب أن يعمله . . وارتبك واحتار . . ماذا يفعل ؟ ورآهما تسيران فى الطريق إلى ميدان السيدة زينب فأخذ يستشير نفسه ملهوفاً متسائلاً عما يصنع ! وهو يخشى أن تبتعدا وتختفيا عن نظره قبل أن يبت فى أمر . وخشى أيضاً أن تكون هذه فرصة سانحة قل أن يأتى مثلها وهو الذى كان ينتظر مجرد طيفها فى الشرفة منذ أسابيع ؟ ! وأخيراً لم ينته إلى قرار . . ولكن عاطفته وحدها التى دفعته . . . فإذا هو يثب من كرسيه تاركا المشروب الذى طلبه وانطلق فى أثرهما بدون أن يعى . . وبلغت المرأتان ميدان السيدة وركبتا الترام الموصل إلى العتبة الخضراء عن طريق شارع عبد العزيز . ووصل مصطفى بعدهما ورآهما يصعدان المحل المخصص « للحريم » فوقف متردداً قليلا إلى أن صفر الكمسارى وتحرك الترام فإذا أيضاً قلب مصطفى هو الذى يبت فجأة وفى الحال قفز إلى نفس الترام وهو لا يدرى إلى أين

ذاهب . . ولماذا فعل ذلك . . وما نتيجة هذا العمل ؟؟ وأخذ تذكرة إلى العتبة الخضراء إلا أنه قال فى نفسه « ومن يدرينى أنها نازله فى العتبة ؟ » .

ثم تطرق من هذا إلى التساؤل والعجب من خروجها فى مثل هذه الساعة ؟ ثم إلى أين ؟ إلى أين تقصد ؟ وهل هى معتادة الخروج فى هذا الوقت من كل يوم بينما هو راقد فى سريره عقب الغداء . ؟ ولقد كان ينبغى له هذا الأرق اليوم حتى يستطيع العلم بذلك ؟ ما أبركه أرقا .! ولكن المهم هو أن ينتبه جيداً إلى نزولها حتى لاتنزل فى محطة غير العتبة وهو لاه كالمغفل . لذلك وضع مصطفى نصب عينيه مكان « الحريم » وظل لا يلتفت إلا إليه . . حتى بلغ الترام أول شارع عبد العزيز فإذا هى وجاريتها تنزلان ولم يكن مصطفى يتوقع ذلك إذ حسبهما قاصدتين العتبة الخضراء . فلم ير نزولهما إلا بعد أن تحرك القطار به . . فنهض كالمخبول وقفز قفزة قوية وأدار ظهره يبحث عنهما فى لهفة وإذا هو وجهاً لوجه أمام سنيه . . . فاحمر خجلا وخفق قلبه وتنحى لهما عن الطريق الذى كان سده عليهما بقفزته . ولم تكن سنيه أقل انبهاتاً منه ولا أقل احمراراً وقد رأته فى وجهها فجأة . . غير أن القناع الأسود « البيشة » أخفى لون وجهها أما هو فقد لاحظت هى تغيره . . . وسارت فى طريقها تتبعها جاريتها ووقف مصطفى فى مكانه من أثر الصدمة وقد تركهما يذهبان بدون أن يشعر بذهابهما . . إلى أن كادا يختفيان بين المارة . . فذكرهما وذكر أنه يود أن يعلم إلى أين تذهب فانطلق مسرعا يبحث عنهما إلى أن عثر بهما فتمهل فى مشيته يتبعهما عن

كتب إلى أن رآهما تدخلان عمارة فى منتصف هذا الشارع .

وقف مصطفى لحظة أمام الباب حائراً يتساءل عما يريدانه فى هذه العمارة وعما إذا كان ينبغى له المضى فى تعقبهما ؟ ووقع نظره على لوحات نحاسية مختلفة بباب العمارة تعلن عن طبيب ومحام وتاجر . فما تردد واقتحم الباب بسرعة وصعد السلم وثباً ليلحق بهما فأدركهما أمام «شقة» ، بالطابق الثالث والجارية تقرع جرساً كهربائياً . . ولم يلبث الباب أن فتح ودخلت المرأتان ورأى مصطفى الباب على وشك أن يغلق خلفهما فهرع إليه ودفعه بيده ليحول دون غلقه . . ودخل خافق القلب — لعله أيضاً تأثير الصعود السريع والوثب ! ! ! وأجال بصره فى المكان فإذا هو فى عيادة طبيب . علم ذلك من « المترجى » الذى فتح الباب وقاد السيدتين إلى حجرة انتظار السيدات . ونظر مصطفى إليهما تدخلان تلك الحجرة الخاصة بهن فتولاه الامتعاض والحسرة . . . وجاءه المرض يقوده بدوره إلى حجرة الرجال فانقاد له بغير وعى .

لم يلبث مصطفى أن وجد نفسه بين بضعة أفندية وشيوخ ينتظرون . فأخذ مجلسه فى أدب بعد أن قرأ الجميع السلام بيده . وظل هو الآخر ينتظر فى سكون .

ولكن ينتظر ماذا ؟ فى هذه اللحظة فقط تنبه مصطفى لموقفه ! لماذا هو هنا فى تلك الحجرة ؟ إنه ليس بمريض . وما العمل إذا جاء دوره الآن وأدخل على الطبيب ؟ ثم أى طبيب هذا الذى هو فى عيادته الآن ؟ إنه

لايعرف حتى إن كان طبيباً باطنياً أو جراحا أو طبيب عيون أو اختصاصياً فى الأذن والحنجرة ؟ !

والتفت يمنة ويسرة فى حيرة وارتباك . هل يسأل من حوله عن صفة هذا الطبيب ؟ ولكنه لايأمن أن يثير سؤاله دهشتهم . . ويعجبون لأمر هذا المريض الذى جاء ولا يعلم إلى أى طبيب جاء ؟ ففضل الصمت . ومن الآن حتى المثول بين يدى الطبيب يأتى الله بالفرج . أو أنه متى دخل حجرة الطبيب ورأى ما فيها من أدوات وآلات قد يتضح له اختصاص صناعته . لذلك لاخير من الانتظار .

ولكن شيئاً آخر خطر لذاكرته : إنه لم يأت هنا كى يرى الطبيب . ماله ولحجرته وأدواته وآلاته . أين هى وجاريتها ؟ أين المرأتان ، وهب ناهضاً على قدميه فجأة على نحو لفت إليه أنظار المرضى المنتظرين . ولكنه لم يأبه وسار نحو الباب وخرج إلى الردهة وأجال بصره فيها فوجد حجرة السيدات بابها مفتوح فاتجه إليها ومر ببابها سريعاً . ثم عاد فوقف ببابها لحظة يتصفح الوجوه كأنما له قريبة أو نسيبة يفتش عنها بين الحاضرات . وإذا فجأة بصره يقع على بصر سنيه . وإذا هى ترنو إليه . ولكنها فى الحال خفضت عينيها السوداوين إلى الأرض فى حياء لذيذ . فابتعد مصطفى مسرعا وعاد إلى مكانه بحجرة الرجال وقد علا الدم إلى وجهه وأطرق مبهوتا تحت تأثير تلك النظرة .

إنها لا شك تعرفه وأحست وجوده وإلا فما معنى هذه النظرة الغريبة نعم إنها بدأت تلتفت إليه وأنه يشعر بذلك . إنه ليشعر الآن بأن بينهما

صلة ، وأن هذا الشعاع من عينيها الخلابتين ، الذى اخترق قلبه الساعة لأقوى رباطاً من سلاسل الحديد . . إنه حسناً فعل بمجيئه اليوم فى أثرها ولسوف يسير دائماً فى أثرها أينما ذهبت . ولكن أتراها أتت هذا المكان للمرة الأولى ؟ أم أنها كانت تختلف اليه منذ زمن وهو لا يعلم ! . أهى مريضة إذن ؟ مسكينة تلك العزيزة ! و بأىّ مرض يا ترى ؟ وأىّ ألم تشعر به ؟ وهل يطيق هو أن يعلم بألمها ولا يتألم كذلك ؟ مستحيل ! . . إنه يتألم مثلها وإنه لمريض مثلها . . . وكفاه هناء وراحة أن يكون مريضاً مثلها و بنفس مرضها . . نعم بنفس مرضها . فقط لو يعلم بأي شىء هى مريضة ! ؟ هذه هى المشكلة ! ولكن الأمر بسيط : ما عليه إلا أن يعرف عيادة أي طبيب هذه .

و بينما هو فى هذه الخواطر والعواطف إذا رجل مريض يدخل عليهم وقد وضع منديله على فكه وأسفل خده الوارم . فما كاد مصطفى يراه حتى أدرك صفة الطبيب وقد كفاه الله مؤونة السؤال . إنه الآن فى عيادة طبيب أسنان . الحمد لله إذ ظهر أنه طبيب أسنان ؟ لقد اطمأنّ مصطفى عليها الآن . . وعلى نفسه . . ! الأسنان . . كل شخص محتاج الى العناية بأسنانه . ومن الناس المترفين الدقيق المزاج من لا ينقطعون عن طبيب الأسنان يتولى أمر أسنانهم على نحو شبه دائم . وما أسعدها فرصة إذا أتيح له رؤيتها دائماً فى العيادة . لما ذا لا يعالج هو أيضاً أسنانه ووضع فى الحال أصبعه فى فمه يبحث و ينقب عله يعثر على سن أوضرس محتاج إلى إصلاح .

فلم يجد سوى ضرس العقل يؤلمه قليلا — على حسب دعواه الآن — كلما أكل أو شرب شيئاً بارداً . .

ومرّ الوقت ولم يبق على مجيء دور مصطفى لملاقاة الطبيب سوى لحظة . وجاءه « الترجمى » منبهاً بذلك مصبراً إياه بقوله : إنه سيدخل فى الحال عقب خروج السيدة التى فى حجرة الطبيب الساعة . فنهض مصطفى للفور واتجه إلى الردهة وألقى نظرة سريعة على مكان سنيه من حجرة السيدات فلم يجدها فأيقن أنها هى التى فى حجرة الطبيب الساعة . إلا أن تكون خرجت قبل ذلك ولم يرها ، ولم يضطرب مصطفى ولم يحزن لأنه علم أنه سوف يقابلها كثيراً فى هذه العيادة ، ولم يلبث أن أتاه الترجمى يدعوه الى الدخول فاستغرب قليلا كيف أنه لم ير أحداً خرج من عند الطبيب ، وسأل فى ذلك ، فقال له الترجمى : إن لحجرة الطبيب باباً آخر يؤدى إلى السلم مباشرة .

دخل مصطفى أخيراً فاستقبله رجل قد وخطه الشيب يرتدى شبه معطف أبيض من التيل فعلم أنه الطبيب فأشار له بالتحية فردها الطبيب سريعاً وهو يشير إليه بالجلوس على كرسى المعالجة . وحاول مصطفى أن يتكلم ليبين له الضرس الذى يشكو منه . ولكن الطبيب لم يمهله وفتح له فاه وتناول مسباراً وأخذ يحفر له جميع أسنانه . وبعد لحظة تركه واستوى قائلاً : لهذا « الزبون » الجديد أن ما ينبغى علاجه لا يقل عن اثنا عشرة سناً وضرساً !

أين وكيف وجد هذه الاثنتى عشرة ؟ لا أحد يدرى . وعبثاً حاول مصطفى أن يقنعه بأن أسنانه كلها سليمة وأنه يأكل عليها جيداً جداً منذ سنين وأنه لا يشكو إلا من ضرس العقل فقط . وحتى هذا الضرس لا يشكو منه كثيراً . ! ذهب كل هذا الكلام فى الهواء . واضطر مصطفى أن يذعن أخيراً لهذا الطبيب . فشمر هذا الأخير عن ساعديه وأدار آلة الحفر والنقر الكهربائية وجعل يخرب فى أسنان مصطفى السليمة وغير السليمة على حد سواء . . .

وانتهى الطبيب فقاد مريضه إلى مكتبه وأخذ يكتب له ورقة بمقدم الدفع ومؤخره ثم بمواعيد الحضور . وهذا ما يهم مصطفى قبل كل شىء . . مواعيد الحضور إذ ينبغى أن تكون هذه المواعيد متفقة ومواعيد سنية وإلا فما الفائدة إذن ؟ ولكن كيف العمل وهو لا يعرف مواعيد سنية بالتحقيق والضبط ؟ وهل يستطيع أو يليق أن يقول للطبيب : إجعل مواعيدى فى نفس الساعة واليوم الذى تأتى فيه تلك السيدة ؟ ! لذلك حار مصطفى فى الأمر وتردد وظل الطبيب يعرض عليه أياماً وساعات وهو يتذرع بالشغل رافضاً فى حيرة وتردد وأخيراً خطر له أن يختار الساعة الثالثة ففى مثل هذه الساعة جاءت سنية اليوم . ثم ذكر أن ميعاد سنية القادم ربما كان اليوم التالى بعد الغد إذ لا علاج فى يومين متتاليين . فطلب من ساعته إلى الطبيب أن يجعل ميعاده القادم فى ذلك اليوم مؤكداً عليه الساعة الثالثة تماماً فتوقف الطبيب لحظة وقلب سجلا أمامه ثم رفع رأسه إلى

مصطفى وقال له إنه لا يستطيع ذلك بعد غد لأن السيدة التى خرجت الآن قبيل دخوله ستأتى فى تلك الساعة من هذا اليوم لتختم علاجها عنده الذى بدأته منذ شهرين . . فإذا شاء مصطفى أتى فى منتصف الرابعة أى عقب خروجها كما حدث اليوم . . وله بعد ذلك أن يأتى فى الثالثة تماماً فيحل محل تلك السيدة التى انتهى علاجها .

« انتهى علاجها ؟ من ؟ يا لنكد الطالع ! كانت تأتى منذ شهرين ! أهو كان أتى اليوم ليأخذ محلها ؟ »

ورجف فؤاد مصطفى وبهت لفكرة أنه لن يراها فى العيادة . وأن علاجها انتهى أو سينتهى بعد غد . . وأنه إنما جاء فى آخر وقت فلم يتمالك أن صاح مبغوتاً :

— الست الصغيرة اللى مع جاريتها ؟ !

فرفع الطبيب بصره إلى مصطفى فى دهشة قليلة ثم أجاب بالايجاب وأردف مصطفى وكأنه يخاطب نفسه :

— انتهى علاجها . ؟ ؟ انتهى إزاى . ؟ ! .

فقال الطبيب مصححاً وهو يبتسم :

— بعد بكره . . آخر يوم فى العلاج .

ودفع مصطفى المبلغ الذى طلب منه واستلم ورقة المواعيد وهو لاه واجم ساهم وخرج يسائل نفسه كالمجنون لماذا اتفق . ولماذا سيأتى . وكيف سيستطيع المجىء ما دامت هى لا تجىء ؟ وما فائدة مجيئه . .

وما كاد يبلغ السلم حتى سمع الطبيب خلفه على باب حجرة العيادة يقول له محذراً إياه ألا يأكل منذ الآن طعاماً ساخناً ولا بارداً ولا يابساً. وأن يتوخى الحيطة التامة فى المضغ حتى لا تهيج العروق.. وأن يجعل غذاءه مقصوراً — إن أمكن — على السوائل كالحساء واللبن وما إليهما. ولا بأس من لباب الخبز الطرى مغموساً فى السوائل. فاستشاط مصطفى غضباً ونزل السلم ساخطاً يقول لنفسه :

— آدى اللى أنا كسبته النهارده ! ما نابنى إلا كونى هرتمت اسنانى !

الفصل العشرون

عاد مصطفى إلى مسكنه محزوناً كئيب النفس وهو لا يفتر يتأمل كيف أنها كانت تختلف إلى طبيب الأسنان منذ شهرين وهو لا يعلم . . فلما علم . . إذا هى تختم العلاج وتنقطع عن الذهاب . ليته لم يعلم . إنه دائماً يعلم بعد فوات الوقت . والآن ماذا يصنع كى يراها ؟ ما كان أحسنها فرصة أن يلقاها عند طبيب الأسنان ويرافقها عن كثب فى الذهاب والإياب ! أما الآن وقد امتنعت هذه الوسيلة فكيف العمل ؟ إن بروزها فى الشرفة أمر غير مضمون .

بات مصطفى وقام وهو على هذه الأفكار . وذكر فى يأسه وكآبته أنها ستذهب إلى الطبيب فى الغد لآخر مرة وأنه مهما كان ويكون من أمره فأمامه فرصة رؤيتها هناك غداً .

اطمأن قليلاً لهذا الخاطر ولو أن خاطراً آخر هتف به فى الحال أن ما قيمة رؤيتها مرة واحدة يتبعها غيبة وفراق لا يعلم مداه . ؟

ارتجف مصطفى قليلا وأحس عاطفة غريبة تتولد فى نفسه : عاطفة الحرص عند اليأس . ولم يلبث أن وطن العزم على القيام بعمل جرىء فى الغد . إن ميعاد الغد عند الطبيب هو آخر فرصة تعطيها إياه الظروف فينبغى له أن يحرص عليها . نعم وأى ظروف أخرى تتيح له القرب منها فى

مكان واحد ! ووالله لو ضاع منه الغد لضاعت آماله كلها . فليتشبث بهذا اليوم الأخير وليضرب ضربة القانط ولا يفكر فى النتيجة .

ونهض من ساعته إلى المنضدة وتناول ورقاً وقلماً وجعل يكتب ويكتب والعرق يتصبب وكان يخرج الكلمة أو الجملة وكأن جزءاً منه يخرج معها . ومضى شطر كبير من ليلة الغد الأخيرة وهو منكب منكفئ على الورق يراجع ما كتب فيخيل إليه أنه ما أراد أن يكتب ذلك ولكن أراد غيره وأكثر منه : أشياء فى صدره يعرفها ويحسها زاخرة مصطخبة ولكن لم يخرج منها شىء على الورق . وها هو مضطر بعد أن أعياه التعب والمراجعة المتكررة أن يترك ما كتب على علاته على أنه ما يريد . ووضع المكتوب فى غلاف أبيض نظيف . . ثم ذهب إلى فراشه وقد احمرت عيناه من فرط السهر والكتابة وتهييج المشاعر .

نهض مصطفى فى الصباح فكان أول ما فعل أن تناول الرسالة الطويلة التى خطها البارحة فأعاد تلاوتها . . ثم لبث برهة متفكراً متردداً وأخيراً انهال عليها يمزقها قطعاً وألقى بها فى سلة المطبخ . لقد استيقظ فيه العقل منتعشاً مع الصباح وبدا له أن العاطفة كادت تضله . لماذا يكتب كل هذا الكلام لهذه الفتاة ؟ إن هذه الصفحات إليها صادقة . هذا صحيح . وإنه إنما يطلعها على جزء مما يحسه نحوها . هذا صحيح . ولكن ما لها ولكل ذلك ولعلها لا تلام إذا قالت فى نفسها بعد الاطلاع على رسالته : « ما الذى يرومه منى هذا الرجل ؟ » نعم . . . ما الذى يرومه بصفحاته المتدفقة

عواطف ؛ إنها أحبته . . ولا يتصور الحياة بغير صورتها — كما يقول — حسن فليتزوجها . . وبدل رسالة طويلة كهذه . . فليذهب إلى والدها أو يوفد أحداً من قبله إليه أو إلى والدتها يخطبها . يوفد من ؟ لديه زوجة خاله تقوم مقام والدته المرحومة . . ولديه خاله مقام والده المرحوم . ثم انتقل فكره من هذا كله إلى أمر حالته المالية وطريقة معيشته بعد الزواج . أيتخذ لها مسكناً لائقاً فى القاهرة بعد أن يصفى أعماله بالمحلة الكبرى! لكن ما الذى يصنعه إذا لم يجد وظيفة فى مصر ؟ وما مركزه الاجتماعى ؟ وهل تراها ترضى به ولا عمل له ؟ ولكن لماذا يشغل باله بكل هذا . أمثله يعجز عن إيجاد عمل ؟ المهم الآن هو أن يسلك الطريق المستقيم ويخطبها إلى أهلها ولا محل لمكاتبات فارغة . هذا ما أملاه عليه العقل . عقل الساعة العاشرة صباحاً . حيث ضجيج الحياة ونشاط القوى المادية المتجددة يجعل جميع المخلوقات راضخة لتأثير المنطق المادى .

ولكن ما جاء الظهر وبدأت حرارة الشمس تتخللها بسمات من نسيم النيل وهمدت الحركة قليلا واستلقى الناس فى الظل يطبقون الجفون نصف إطباق أمام وهج الضوء الراسم فى الهواء أشكالا متماوجة مرتعشة . وقت يبدأ فيه استيقاظ الخيال ويتحول كل شىء من جديد تحت سيطرة العاطفة حتى بدأ يتولد فى مصطفى شعور ندم على تمزيقه الخطاب . ونظر فى ساعته فوجد أن لم يبق غير وقت قصير على ميعاد ذهاب سنية إلى الطبيب . . . وهذه آخر فرصة . . وهذا اليوم آخر عهده بملاقاتها هناك . فما ذا أعد لهذا الظرف

السانح ؟ وكيف يتكاسل ويتردد ويخور عزمه فى دقيقة هامة كهذه ؟ ! وهكذا عاد إليه المنطق الآخر العاطفى يسير بمقتضاه بغير أن يشعر . وذهب لفوره إلى المنضدة وتناول ورقاً وقلماً . . . ولكنه توقف إذ ذكر ما فعل فى الصباح . غير أنه أقنع نفسه بقوله : إنه لن يكتب صفحات عديدة كرسالة البارحة . بل يفهمها إحساسه نحوها فى كلمتين . سطرين . . فقط . وكأنه ذكر كذلك حكاية خطبتها إلى أهلها وأن الرسالة لا فائدة منها ، فتردّد قليلا . ولكن ما لبث أن شعر بالحاجة إلى كتابة هذه الرسالة لها . نعم إنه سيخطبها وسيتزوجها إذا سمحت وشاء الله . . ولكن كل هذا لا يمنع أن هذه الرسالة لا بد أن تقرأها . . إنه فى حاجة ماسة إلى أن يطلعها على ما يحس نحوها . وفى حاجة ماسة إلى معرفة رأيها فى ذلك . المسألة ليست فقط مسألة بلوغ غاية مادية من طريق مباشر كما يزعم العقل . بل بجانب هذا توجد مسألة العاطفة والقلب الذى لا يطمئن ولا يهدأ حتى يعلم هل هناك تبادل فى الإحساس والعاطفة أولا ؟ أو بالأقل لا يهدأ ولا يستقر حتى يصرح بما يكنه ويتلقى الجواب عليه ، فمصطفى يشعر بحاجة القلب هذه ، وحتى على فرض أن الخطبة تمت والزواج تقرر فانه ما زال فى حاجة هائلة إلى معرفة رأيها فيه ، وهكذا اقتنع مصطفى كل الاقتناع ، وكأنه أدرك أن منطق العقل غير منطق القلب ، وكلاهما صحيح ، وكلاهما ضرورى ، وانكب على الورقة يكتب بسرعة عدة أسطر ، وضعها فى الغلاف ثم نادى خادمه طالباً الغذاء وأكل فى عجلة ، ثم نزل إلى القهوة متربصاً خروج الفتاة وجاريتها .

ما دقت الساعة الثالثة حتى ظهرت الجارية بالباب فدق قلب مصطفى واستعدّ للقيام ، إلا أن الجارية خطت بمفردها إلى الشارع ، واستوقفت عربة مارّة ، ولم تمض لحظة حتى خرجت سنية واتجهت إلى العربة ، وقبل أن تركب التفتت إلى ناحية القهوة ونظرت إلى مصطفى ثم صعدت وتبعتها جاريتها وسارت بهما العربة .

وظلّ مصطفى واقفاً فى مكانه مبهوتاً قليلا ، أولا لأنه كان يحسبهما ذاهبتين بالترام كالمرّة السابقة ولم يتوقع العربة . ثانياً من أثر تلك النظرة ولو لم يكن النقاب يخفى ثغرها ، للمح مصطفى عليه ابتسامة ، ولكن العجيب أنه أدرك هذه الابتسامة من عينيها ، إنها ابتسامة غريبة فيها — لو درى مصطفى — معنى السرور والمداعبة والعاطفة العميقة كلها مجتمعة ولكن لم يدرك منها إلا أنها غدت تحسّ وجوده وتلحظ اهتمامه بها ، وفرح مصطفى وغابت العربة عن نظره ، ففطن واختلج وجرى مسرعاً يبحث عن عربة وهو مضطرب خائف ألا يلحق بها ، ولكنه تذكر أنه يعرف إلى أين هى ذاهبة ، فهدأ قليلا وركب مع ذلك عربة حتى لا يتأخر كثيراً . وظل فى الطريق يفكر فيها وفى نظرتها وفى ركوبها اليوم العربة ، نعم لماذا ركبت عربة اليوم وقد عرفت أنه يتبعها فى الترام ؟ لعلها نزلت متأخرة اليوم أو لعلها كانت تذهب دائماً بعربة ولم تذهب بالترام الا أول أمس مصادفة ؟ أو لعلها تريد توفير الوقت ؟ على كل حال هذه مسألة غير مهمة لا تدعو إلى كل هذا التفكير ، ولا غرابة مطلقا فى

تصرفها هذا . ماذا فى سيدة ركبت عربة ؟ أو لا يريدها أن تركب عربة؟ ولم ينقطع عن هذه الأفكار إلا بوصول عربته أمام عمارة الطبيب ، فنزل وصعد مسرعا وكان أول ما فعل عند دخوله العيادة أن ذهب وألقى نظرة على مكان سنية التى كانت فيه أول أمس بحجرة السيدات . . كأنها لا يمكن أن تغير هذا المكان ، فلم يجدها فيه فارتعد ، ونظر قانطا الى جهة أخرى من الحجرة فألفاها جالسة بجانب جاريتها وقد نظرت اليه فاحمر خجلا واختفى فى الحال من عينيها قاصداً حجرة الرجال حيث جعل ينتظر مفكراً كيف يوصل إليها الرسالة ؟ .

وخطرت له أخيراً فكرة جميلة : هى أن يطلب الى « الترجمى » أن يستدعى له الجارية المرافقة للسيدة من حجرة السيدات ، وعندئذ يسلم الرسالة للجارية كى توصلها إلى سيدتها مفهما إياها أنها من عند الطبيب مثلا . . ولكن هب سنية سألت « الترجمى » عمن يطلب جاريتها فماذا يجيب ؟ ثم ما معنى أن يرسل اليها الطبيب رسالة وهو عما قليل يراها ؟ واذا أعطى « الترجمى » نفسه الرسالة ليوصلها إلى سنية فانه يثير شبهة الرجل ويعرض سنية ونفسه للقيل والقال . إن هذه الجارية الجاهلة كانت خير رسول ولكن كيف يستدعيها اليه ؟

لم يهتد مصطفى إلى حل مرض وخشى أن يفوت الوقت فى هذا التردد والتصميم ويأتى دور سنية وتدخل هى وجاريتها إلى حجرة الطبيب ، وتخرجان بعد ذلك من الباب الآخر فلا يراها وتفلت الفرصة فنهض بقوة

مصرًّا على تنفيذ الفكرة غير ناظر إلى ما يحدث . واستدعى « التمرجى » فى الردهة وطلب اليه استدعاء الجارية التى فى حجرة السيدات ولم يقل له أكثر من ذلك . ومضى الممرض من ساعته إلى الجارية فأشار لها عن بعد أن تأتى إليه فترددت قليلا ونظرت إلى سيدتها فقالت لها ستها :

— قومى يا داده بخيته شوفى التمرجى عايز إيه ؟ !

فنهضت بخيته وسارت اليه فسحبها من يدها فى صمت حتى أوصلها إلى مصطفى . فتنفس الشاب وأخذها ناحية وأخرج الرسالة من جيبه وأعطاها إياها قائلا :

— سلمى دى لستك حالا !

ولم يزد على ذلك وقد أيقن أن قلة الكلام فى هذه الظروف خير من كثرته . وتناولت الجارية الرسالة قائلة :

— « هاضر » يا سيدى !

ولم يخطر لها أن تسأله ممن ؟ .

وما رآها مصطفى تذهب بالرسالة إلى سنيه حتى اهتز فؤاده ابتهاجا وشعر كأنه نال كل ما أراد من هذا المكان . فخرج من العيادة توًّا وكأنه لايمشى على قدميه بل تحمله أجنحة خيالية . وسار فى شارع عبد العزيز ناسيا أن دوره ينتظره عند طبيب الأسنان .

الفصل الحادى والعشرون

اشتد حال محسن سوءاً . وأجمعت أساتذته بعد عجب طويل على ضياعه المحقق هذا العام . إن لم تنقذه أعجوبة . وشحب لونه وقل كلامه فأشفق عليه أعمامه وصاروا يخرجون به إلى النزهة إرغاماً ليروحوا عنه . فكانوا يسيرون بجانبه فى صمت غير مجترئين بعد على مفاتحته فى الكلام . ولعل العدوى انتقلت إلى عبده فأصبح أمره هو الآخر يشبه أمر محسن . وغدا لايطيق كثرة الكلام حوله ولا ذكر اسم سنيه على الخصوص . وقد كانت زنوبه إلى عهد غير بعيد كلما علمت خبراً أو شاهدت أمراً من نافذتها يتعلق بالجيران بادرت تزفه إلى « الشعب » حال اجتماعه حول مائدة الطعام . ولكن عبده حرم عليها ذلك بتاتاً ، وأرغمها على السكوت المطلق بالأقل فى حضرتهم . وهكذا غدا البيت كالمقبرة وغدوا هم كالأشباح . . يأكلون ويدخلون ويخرجون فى صمت ، وضايق هذا بادئ الأمر حنفى أفندى ومبروك ، نعم ماذنب حنفى ؟ إن كان للآخرين عذر فى السكوت فما عذره هو يقبرونه معهم ؟ وحاول أن يتكلم وأن يضاحكهم ويمازحهم بحجة الترفيه عنهم فلم يجد منهم مصغياً ولا مستظرفاً فأجبر على السكوت .

***

لا ريب كان حزن محسن عظيما حتى استطاع ترك هذا الأثر فيمن حوله

فما كان يسمع هذا المسكين صوت بيانو يضرب فى الطريق فى أحد البيوت حتى يصفر ويجفر ويعلو قلبه ويهبط ويختل توازن مشيته ويحاول المستحيل ليضبط نفسه ويخفى ما ألم به فجأة .

أيام مضت ولن تعود ... كان فيها يسمع صوت البيانو وهى بجانبه تعلمه التوقيع بمسكة يده بيدها الرقيقة . . وكان هو يعلمها الغناء وهى مصغية ترنو إليه فى إعجاب وهو ينشد :

« قدك أمير الأغصان من غير مكابر »
« وورد خدك سلطان على الأزاهر »
« الحب كله أشجان يا قلب حاذر ! »
« الصد ويا الهجران جزا المخاطر »

كان يتمثل للفتى طيف تلك الأيام . . فيتوقف وقد غلبته شهقة بكاء ، ويقول لنفسه منفجراً فى عزلة :

الحب كله أشجان يا قلب حاذر !
والصد ويا الهجران جزا المخاطر .

نعم . . . وهو الذى كان يقول ذلك أمامها باسماً فى تلك الأيام السعيدة التى ذهبت . باسماً لأنه كان يظن الأغنية أغنية وأن مافيها من التحذير والنذير مجرد كلمات . . . وأين له العلم بأن كل ماسلف سينقضى بهذه السرعة . . وأن كل هذا ينتظره . . ؟ .

يا قلب آدى انت حبيت ورجعت تندم

ورحت تشكى ما لقيت لك حد يرحم

هكذا تقول الأغنية أيضا .

نعم « ورحت تشكى ما لقيت . . » . حتى الشكوى هو محروم منها . . وهل تتدانى هى إلى سماع شكوى الآن ؟ كلا مستحيل . أما الشكوى إلى رفاقه . . فهو يحرم نفسه إياها . . قد يكون فيها بعض التخفيف . ولكن ما الفائدة ؟

كثيراً ما يكون عبده سليم رفقته ويحس صلة قلبيهما بقلبه و يدرك بمشاعره رغبة سليم المتأججة فى مفاتحته وانتهازه الفرص للكلام فى ذلك الموضوع ... ولكن محسن كان يفضل السكوت . ومع ذلك فقد كانوا إذا لمحوا سيدة ذات ثوب أخضر أو سمعوا صوت بيانو أو جاء ذكر أسلاك الكهرباء شعروا جميعا برجفة تسرى فيهم؛ وهذه كانت اللغة الوحيدة التى يتفاهمون بها .

العجيب أن سليم انقلب شخصا آخر ، وكأن قلب محسن الكبير فيه من النار المقدسة ما يكفى لملء قلب سليم وتكملة الناقص من قلب عبده . إن سليم بطبعه لم يكن قديراً على إحساسات كهذه ، و إن ما كان بينه و بين سنيه لا يستلزم كل هذا ، ولا شك أنه لو كان وحده فى بلد كبورسعيد وحدث ما حدث لما أفرد له هذا الاهتمام .. أهى إذن العدوى ؟ أم الوهم ! . أم الالهام ؟ أليس أن القلب مصدر قوى هائلة ؟ وأن قلباً واحداً كبيراً يكفى لإلهام قلوب شتى !

هكذا بدأت عواطف عبده وسليم بالإعجاب والتأثر وانتهت بالمشاركة والمشاطرة . وأصبحا كلما أوغل محسن فى الألم وكلما شاركاه فيه يشعران أنهما ارتفعا عن مرتبتهما الأولى .

ومرت الأيام و إذا تلك الحياة بجوار محسن واقتسام هذا الحزن الجميل يقتل فيهما كل عاطفة شر أو حقد نحو سنيه أو مصطفى . بل أعجب من هذا أن سنيه قد تغيرت فى عين سليم . . فنسى فيها المرأة المادية ذات الجسم المغرى والثديين البرتقاليين الواقفين فهو لايذكر منها الآن إلا اسماً معنويا لايدل إلا على معبود يتألمون كلهم من أجله .. و يشاهدون و يرثون لعذاب هذا الصغير المؤثر فى سبيله .

نعم لو أن محسن ذكر الآن يوم رأى الفلاحين فى الضيعة يكدون و يتألمون وهم يغنون فى سبيل المحصول معبودهم المرتفع أكواماً أكواماً وهم حوله العبيد بمناجلهم وأقدامهم وأجسادهم العارية التى قرحها القر والحر والعمل والظلم . . لقد فكر يومها هو الآخر فى معبوده وخطر له خاطر ارتعد له : « هل يستطيع أن يتألم هو أيضا فى سبيل ذلك المعبود أو أنه ليس من دم هذا الفلاح ؟ . »

لم يستطع محسن مطلقاً ، و برغم ماحدث أن ينزع من فكره ذلك الخطاب الذى وصله فى العزبة والذى يحفظه دائما . ولم يستطع مطلقا أن يتصور سنيه لم تكتبه ولا تعلم به . ولم تستطع حتى الحقيقة أن تهدم تلك الخيالات والأوهام التى طالما بناها على ذلك الخطاب . والخيال أحيانا

أقوى من الحقيقة . لذلك ما انفك محسن يخرج فى وحدته ذلك الخطاب ويتلوه ويمعن فيه مردداً تلك الجمل التى توسع فى تفسيرها وأسبغ خياله عليها معانى لم تكن لها . نعم لقد كان يتذكر قول زنوبه إن هذا الخطاب إنما حرره كاتب عمومى أمام محكمة السيدة . ولكنه مع ذلك كان يعز عليه تمزيق هذا الخطاب . وكان يتمسك به وبعباراته المعهودة كأنما الخيال واستمراره أعاره فى نظره قوة الحقيقة . . أو أن الوهم انقلب عقيدة . وأنى للحقيقة أن تهزم العقيدة ! إلا أن يهزم العقل القلب !؟

وفى ذات يوم باغت سليم محسن فى سريره وقد أخرج ذلك الخطاب من غلافه بعناية وجعل يطالعه كالمعتاد فى تأن خلف ستار الناموسية المسدلة . فلم يتمالك سليم أن خرج من صمته وصاح صيحة فرح ملهوفا :

— جواب ؟ . جواب من عندها ؟ .

فرفع محسن رأسه مبغوتا وحاول إخفاء الخطاب بحركة غريزية وكان رئيس الشرف حنفى مستلقياً على سريره يقربهما يستعين بالنوم على تلك الأحزان التى ينال نصيبه فيها بغير مقتض . فلما سمع صيحة الفرح التى لفظها سليم ولم يكن قد سمع صوته منذ زمان أيقن أن ساعة الرحمة والفرج قد أذنت . فنفض عنه اللحاف بسرعة وهب منتصباً فى فراشه وصاح بصوت فيه حرارة التحمس :

— بشرونى يا اولاد . !

ولم يلبث سليم أن ترك الحجرة وذهب يفتش فى البيت مناديا :

— عبده . . . ! يا عبده . . . ! يا عبده . . .

وعمت الضجة البيت ... ولو كانت زنوبة حاضرة لدهشت لهذا الإنقلاب الفجائى فى المنزل الصامت وقد عادت إليه مظاهر الحياة ولكنها كانت قد خرجت بصحبة مبروك لإحدى الزيارات كما تقول ولعلها ذهبت حقيقة ... ولكن لتفشى كامن بغضها الذى لايفتر وتشيع ماتختلقه زوراً على غريمتها... أو لعلها كذبت وذهبت هى ومبروك للبحث عن سحرة البلد الحاذقين ...

كان عبده فى حجرة الاستقبال أمام لوحة الرسم ... يعمل آنا ليشغل نفسه ويقذف بالقلم فى ضيق آنا آخر ضجراً ملولا مستيئساً من هذه الحالة فلما سمع نداء سليم تغيرت فى الحال أساريره وهرع نحوه يرى الخبر ...

ولم يمض قليل حتى ألفى محسن نفسه بين رفاقه ينظرون إليه منتظرين وعلى وجوههم ابتسامة أمل تأثر لها ...

لم يستطع أن يسكت عنهم هذه المرة ... وقد فعل به منظر رجائهم وفرحهم فمد يده تحت الوسادة وأخرج الخطاب إلا أنه تردد قليلا وخجل إذ ذكر أن هذا الخطاب قديم التاريخ وأنهم لاشك يظنون أنه جديد وسيخيب أملهم . ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يلزم خطة الصمت والعزلة عنهم بعد الآن . ولا بد أن يقاسمهم ذلك القليل الذى عنده و بقى له من آثار سنيه . فمد يده إليهم بالخطاب فتناوله سليم ونشره تحت أعين عبده وابثا يطالعان ومحسن يراقب ما يرتسم على وجهيهما... وأخيراً ردا إليه الخطاب فى سكون وقد خاب أملهما على نحو وجف له محسن . وسمع عبده يدمدم قائلا :

- دا من عند زنوبه ؟!

ورفع سليم رأسه إلى محسن وكأنه يسأله مستغرباً عما حمله على مطالعة خطاب كهذا . . .

فأجاب الفتى بصوت منخفض وهو مطرق :

— هى اللى كتبته . .

فسأل سليم فى رفق وصوت متأدب خافت :

— هي مين ؟ . سنيه . . ؟

فأشار محسن برأسه علامة الايجاب وعندئذ تناول سليم الخطاب مرة ثانية ليعيد قراءته من جديد . وعاد عبده إلى المطالعة أيضاً من فوق كتف سليم . وهنا أخذ محسن يشير لهما بأصبعه إلى العبارات المهمة فى الخطاب ويفسرها ويشرح معانيها الخفية كما فهمها هو . فما لبث سليم أن ردد هذه العبارات وقابل بينها وبين التفسير الذى يزعمه محسن . . ثم هز رأسه وقال بصوت خافت يائس :

— لا . . . أبداً . ! ! مش قصدها . . . !

فامتقع لون محسن المسكين . فغمز عبده سليم بمرفقه ثم أسرع قائلا :

— قصدها كده تمام . اقرأ تانى وانت تفهم !

ثم التفت إلى محسن وقال فى لطف :

— ما قابلتهاش بعد ما رجعت من السفر ؟

فأجاب محسن للفور :

— أبدا .

وهنا تذكر محسن أنه حقيقة لم يذهب إليها بعد عودته ولم يرها قط مع أنها تستحثه وتنتظر عودته بفارغ الصبر . وها خطابها وعباراتها تنبئ عن مبلغ هذا الانتظار ! !

وأعطاه هذا الخاطر شيئاً من الأمل والقوة . نعم إنه هو المذنب لأنه لم يذهب إليها تواً . بل إنه هو الخائن لعهدها وأنه الذى أساء معاملتها .

وازداد فرحه بهذه الفكرة فانفجر يحدث رفاقه عنها وعما كان له معها قبل السفر وعن المنديل الذى كان التقطه ولكنها منحته إياه بعد أن مسحت له به دموعه !! وها هو المنديل يحفظه للآن . ثم أسرع فأبرز لهم المنديل الحريرى . . . فتناوله سليم بسرعة ولوّح به لحنفى وهو يصيح فرحاً :

— العاشق للنبى يصلى عليه !

فسأل الرئيس حنفى وهو يبحث عن منظاره ليرى ما بيد سليم :

— إيه ده ..؟

فأجاب سليم وهو يدنى المنديل من عين حنفى :

— منديلها . منديلها . معانا منديلها .

فوقف الرئيس حنفى باحترام وقال فى صوت خطير :

— منديلها ! الله أكبر !

ثم رفع عينيه إلى السماء وقبل يديه وجهاً وظهراً وقال :

— الحمد لله ! نعمة من الله ! . . بزياده علينا !. احنا عايزين ننهب ؟!

وأردف سليم باغتباط بعد أن سلم المنديل لعبده ليتأمله بدوره :

— وقالت لنا تعالوا ولا رحناش !!

فقال حنفى للفور صائحاً :

— احنا المحقوقين !!

ثم « كبس » طاقيته حتى أذنيه ووضع يديه فى خاصرته وجعل هـذا « الرئيس الشرف » يرقص ويقول مغنياً :

— منديلها معانا .. معانا منديلها .. ياسيدى منديلها . منديل الحلو . . الحلو . . الحلو . . .

فانتهره عبده الذى خشى أن يقلب حنفى الموقف إلى هزل بهذا الهرج ولـكن « الرئيس » فى الحقيقة ما كان يقصد هزءاً و إنما هو فرح محبوس وكأنما طول الصمت والعبوس فى هذا المنزل واضطراره إلى مجاراة الرفاق زمناً وكتم طبيعته المرحة أثر به فلما فهم أن الحياة فى المنزل رجعت إلى مجاريها انطلق بكل نفسه . لذلك لم يسكت عن الضجيج والتهريج . فعاد عبده يصيح به .

— بس بقا . . من فضلك ؟

فسكت عن الغناء ودنا من عبده وقال فى ابتهاج :

— قالت لنا تعالوا ولا رحناش !

وعندئذ فجأة تقدم سليم إلى الجميع وقد خطرت له فكرة :

— هس ..! سمع ... كلكم !... فيه اقتراح .

فالتفت إليه الجميع قائلين فى وقت واحد :

— إيه . !؟

فقال سليم فى تؤدة :

— أنا أقترح أن محسن يروح . رأيكم إيه ؟

فأشار الجميع بالموافقة .

وكان محسن يشاهد ما جرى أمامه فى ابتسام وسرور داخلى لعبارة : « معانا منديلها » و « قالت لنا تعالوا » الخ الخ . متأثراً للفظة « نحن » التى حلت محل لفظة « أنا » ... مرتاحا إلى أن ماله خاصة أصبح ملكا للجميع . وإلى أنه بات يدخل عليهم الرجاء والاغتباط أجمعين وأحس منذ تلك اللحظة أنه مسئول عن هناء هذا « الشعب » وأنه يجرؤ الآن على فعل كل شىء من أجلهم . وأنه لن يحرمهم بعد الآن أى شىء مما يخص به نفسه . ورضى أن يذهب لمقابلة سنية عله يأتى بنتيجة يفرح بها « الشعب » .

الفصل الثانى والعشرون

سمعت سنيه أذان العصر من مسجد السيدة وهى فى حجرتها منذ الظهر لم تنم ولم تنقطع عن التفكير فى أمر هذا الخطاب الذى تسلمته من جاريتها أمس فى عيادة الطبيب . إنها من ساعة لمحته فى يد بخيته أحست ممن هو . ودق قلبها فى الحال ولكنها تجلدت وتناولته ودسته فى صدرها إلى أن جاء الليل ودخلت حجرتها وأغلقت بابها ففضته وأنفاسها معلقة وقرأت وصدرها يرتفع وينخفض حتى انتهت فإذا هى ترفع الخطاب إلى فمها بلا وعى تقبله وقد نزلت دموعها حتى فمها . . . ونامت أو لم تنم فى ليلتها لا تدرى . إلا أنها كانت فى حالة لم تعرفها من قبل . وكان أول ما فعلت فى الصباح أن طالعت الرسالة من جديد . وها هى الآن أيضاً منذ الغداء منفردة وبابها مغلق عليها والخطاب منشور بين يديها وهى تتأمل سطوره القليلة التى استطاعت أن تعطيها فى يوم وليلة أجمل سعادة عرفتها منذ ولدت .

كان الخطاب فى هذا الأسلوب البسيط :

سيدتى

أعذرى جرأتى . إنى فعلت ذلك مضطراً . منذ شهر تقريباً خرجت مقاليد حياتى من يدى إلى يد أخرى ولم أصبح وحدى الشخص المالك لزمام شئونى . فإذا تجرأت بالكتابة إليك فلأنى أريد طبعاً أن أعرف

رأى ذلك الشخص الذى يتصرف الآن فى أمر هنائى وشقائى وربما مستقبلى . إنى أعلق أهمية على رأيك . لأنى لا أود أن أكون أنانياً . ولأنى أحبك إلى درجة أنى أفضل الشقاء على رباط يأباه ميلك .

وتقبلى يا سيدتى احترام ؟

المخلص

مصطفى راجى

شارع سلامه رقم ٣٥ الدور الثانى

لا بد أن يكون هذا الرجل مخلصاً فيما يقول لأنها هى أيضاً تحس نفس الإحساس : حياتها لم تعد ملكا لها وحدها . شخص آخر — عندها كذلك — أصبح المسيطر على ما فى تلك الحياة من ساعات هناء وساعات شقاء . العجيب أن عبارات هذا الخطاب إنما صنعت على قدّ إحساسها هى . . وكأنها جاءت لتعبر عما يخالجها هى . أبعد ذلك دليل على صدق عاطفته ؟ أو ليس من القلب إلى القلب رسول كما يقولون ؟ !

وجعلت تتمتم فى سرور :

— صحيح ! من القلب للقلب رسول ! . .

شىء واحد فقط بعد ذلك ما كان يحيرها :

ماذا تصنع ، . وكيف تصنع ؟ ! أتتناول القلم وترد عليه ؟ أم أنها برغم ثقتها ويقينها واقتناعها وبرغم سعادتها وفرحها به لا يصح لها ولا يليق بها كفتاة مخدرة شريفة أن تكاتب رجلا هو غريب عنها على كل حال . !

نظرت إلى الخطاب فى يدها مرة أخرى وراحت تفكر فى هذه المسألة التى تشغلها منذ الصباح . ووقع نظرها على عبارة « إنى أعلق أهمية على رأيك . . » ثم صعدت بصرها فى السطر الذى قبله «إنى أريد أن أعرف رأى ذلك الشخص الذى يتصرف الآن فى أمر هنائى ..» إلخ إلخ فأطرقت برهة . ثم تركت الخطاب على المقعد ونهضت إلى المرآة وألقت عينيها على صورة وجهها المورد إلى حد الاحتقان من تأثير الخوالج النفسية المطردة والتفكير المستمر . . وابتسمت لنفسها ابتسامة المغتبط لأمره . ثم تساءلت بصوت خافت وكأنها تخاطب صورتها بلهجة المقنع : « مصطفى ينتظر رأيى ....! « مصطفى له الحق يعرف » « دا حق من حقوقه » ! . وانتصر منطق القلب مرة أخرى . ولكن خطر لها خاطر آخر : لو استطاعت أن تكلمه مباشرة ؟ ! أو بالأقل أن تعجل له بابتسامة أو نظرة يكون فيها كل الرد .؟! إنه قريب منها جداً أليس يقول إنه يقطن الطابق الثانى من المنزل المجاور ؟! إنها هى أيضاً فى الطابق الثانى . . نعم . . ويالحسن الحظ ! إن شرفته المكشوفة الصغيرة تحاذى نافذة حجرتها ولم تفطن إلى ذلك . . يا لها من مغفلة ! . .

وتركت المرآة وهرعت إلى نافذتها وفتحتها لتتأكد من قرب شرفته منها نعم قريبة جداً . بينهما متران . ، لأن حجرتها تقع فى آخر المنزل من الجهة الملاصقة للمجار . يا للفرحة ! إنها إذن ليست فى حاجة إلى الشرفة الخشبية المقفولة ولا إلى الذهاب كل ساعة إلى قاعة البيانو فتلفت إليها أنظار

والديها . ما أعماها ! كيف لم تعرف حسن موقع نافذتها من قبل ! صحيح أن الشرفة الخشبية تطل مباشرة على القهوة . ولكن ما لها وللقهوة الآن . سوف تشير له من نافذتها كى يخرج إلى شرفته الصغيرة التى لم يبرز فيها مرة واحدة منذ قدومه . عند ذاك تستطيع أن تحادثه وهى فى حجرتها الخاصة فى سكون الليل ومتران بينهما ليسا بالمسافة الكبيرة . .

و بينا هى فى تلك الخواطر الجميلة إذ دق الباب فأغلقت النافذة بسرعة وذهبت ففتحت فإذا جاريتها بخيته تخبرها أن محسن الصغير فى قاعة البيانو وقد سأل أولا عن الست الكبيرة . . ولكن الست الكبيرة فى حجرتها تصلى العصر وملحقاته . . فطلب رؤية الست الصغيرة . .

دهشت سنية قليلا وقالت مدمدمة :

- محسن ؟ ! !

ووقفت مترددة لحظة . ثم رفعت عينيها إلى بخيته كأنما تسألها عن سبب مجيئه . وأخيراً مشت بخطى متثاقلة إلى حجرة البيانو .

كان محسن فى الحجرة جالساً على كرسى منفرد يحسب ألف حساب لظهور سنية ... و يصفر وجهه و يحمر لكل حركة تقترب و يعلو قلبه ويهبط كلما خطر له أنه عما قليل يراها وأنه سيحدثها بتلك الأحاديث الخطيرة التى جعل يهيئها فى رأسه أياماً قبل مجيئه اليوم .

وفجأة أحس حفيف ثوب بالباب فانتفض ناهضاً وقد شحب لونه ووقف مرتبكا وألجم لسانه . . . ونظرت سنية إليه وهى بالعتبة نظرة استفهام جامدة

لكنها ما لبثت أن تقدمت نحوه وكأنما أخذتها شفقة بمنظره فمدت يدها له وقالت متلطفة :

- إزيك يا محسن !

فأجاب وهو يبلع ريقه مطرقاً :

— الله يسلمك . .

ثم سكت . وسكتت هي أيضاً طبعاً . وكانت لا تزال مستغربة قدومه منتظرة معرفة السبب . وطال السكوت . وكأنها أدركت أخيراً أن لا فائدة من انتظار بدئه بالكلام .

فبدأت هى قائلة :

— بلغتك أعمال عمتك ؟

وكان محسن توقع هذا السؤال من قبل وجهز له الإجابة . . فما عليه الآن إلا أن يتكلم ففتح فاه ولفظ أولا بضع عبارات مرتجفة مضطربة قائلاإ نه وجميع المنزل غاضب على عمته زنو به لسلوكها هذا المسلك معها . . غير أنه هو ما ذنبه ؟ ولماذا تأخذه سنية بذنب عمته زنو به ؟ فأجابت سنية للفور :

— ومين قال لك يامحسن إنى زعلانه منك ؟

جاء هذا الجواب مهدئاً لروع محسن . فاطمأن قليلا وذهب خجله وخوفه بعض الشيء . وكأنما فسر جوابها هذا تفسيراً أوسع من حقيقته وفهم منه ماجعله يفرح ويقول فى صوت مرتجف قليلا :

— صحيح ؟ مش زعلانه منى ؟ أنا دايماً عندك زى زمان ؟ زى يوم قبل السفر ؟!؟

فقالت سنيه وقد بدا عليها شىء من القلق :

— طبعاً : وأنت ذنبك إيه ؟

ولكن محسن لم يلتفت إلى ردها . واندفع يخبرها فى حرارة صبيانية عن سفره وعن انتظاره خطابها وعن عودته وعن رغبته فى رؤيتها وعن ذلك الخوف الذى كان يمنعه من زيارتها عقب رجوعه مباشرة وتلك الفكرة المشؤومة التى كانت مستحوذة عليه من أنها قد نسيته كل النسيان وأنها لا تود رؤيته قط . وعن تلك الأيام السوداء التى قضاها بعيداً عنها . كل ذلك . دون أن يجرؤ على ذكر مصطفى ودوره فيما حدث . وكانت سنيه تستمع إليه شاردة الفكر . وكثيراً ما كانت تطرق كلما تحدث محسن عن ألمه من البعد عنها . ثم حدثها عن منديلها الذى كان سلوته ورفيقه ووضع يده على جيبه وهنا أحس رزمة من الورق هى أشعار ورسائل نثرية كان قد نظمها وكتبها طول تلك الأيام التى تلت يوم فكر هو وأعمامه فى الذهاب إلى سنيه . منذ ذلك اليوم حتى هـذه الزيارة وهو هائم شارد فى الحدائق والمتنزهات العمومية وعلى ضفاف النيل وقد امتزج يأسه بقليل من الأمل اللذيذ . ومحسن بطبيعته الشاعرية قد سبق له نظم الأشعار والأزجال والمقطوعات الغنائية فى ظروف مختلفة . فكيف بهذا الظرف الذى ملك كل

كيانه ؟ واليوم قبيل مجيئه خطر له أن يقدم لها كل ما كتبه فيها حتى تعلم كل مايحويه قلبه .

وانتهى الفتى من كلامه وقد احمر وجهه وجف لعابه ونظر إليها منتظراً ما تقول . ولكنها لم تستطع أو لم تجد شيئاً تقوله .

وسكتت قليلا حائرة ثم نهضت فى ضيق وقالت :

— لا يا محسن . أنا مش زعلانه منك أبداً .

كأن هذا هو الجواب الوحيد الذى له عندها على كل ما قال .

بهت محسن قليلا ولكنه ظل ساكتاً منتظراً فى أمل أن تستمر فى الكلام بعد ذلك .

ولكنها لم تتكلم وعادت فجلست لحظة ثم تململت والتفتت إلى محسن المطرق المنتظر ونهضت نصف نهوض كأنما تدعوه إلى الانصراف وقالت :

— أنا متشكرة على كل حال يا محسن و ... وتأكد أنى مش زعلانه منك أبداً .

هنا أحس محسن خيبة الأمل . وفتحت عيناه أمام الحقيقة المخيفة . ولكنه ككل يائس أغمض عينيه على عجل وتشبث بالمحال وقال بصوت المتوسل :

— فاكره دروس البيانو ؟ .

فتحركت فى مجلسها وقالت فى فتور :

— طبعاً فاكراها .

فتجلد الفتى وقال :

— لكن أنا نسيت دروسى ومحتاج لك تعيدى معايا كل اللى فات .

فأطرقت سنيه ولم تحر جوابا . ثم تمثل لها مصطفى ووقتها المشغول به وحياتها التى لا تستطيع أن تنفق منها دقيقة لغير مصطفى وذكره فتحرك فيها الغضب وقالت ببرود :

— أنا ما عنديش وقت .

فتجلد محسن أيضا وقال فى رجاء :

— مش عايزانى آجى ؟

فلم تجب فى الحال . ولكنها عادت فقالت :

— أنا يامحسن عندى شغل كتير دلوقت .

فوهن جلد محسن وتصبب العرق من جسمه وأظلمت الدنيا فى عينه . ولكنه قال بصوت اليائس :

— يعنى دى آخر مرة آجى فيها ؟ ! دى آخر مرة أشوفك . ؟ .

ولم يملك ضبط نفسه فتساقطت دموعه وأجهش باكيا . ولمحته سنيه وسمعت صوت نشيجه فحولت رأسها عنه كالمتجاهلة ولكنها رأت أن صوته قد أخذ يعلو . فنهضت واقفة وترددت قليلا ثم التفتت إليه وقالت فى صوت متبرم جاف :

— جرى لك إيه يا محسن ؟ أنت صغير تعيط ؟ أنت مش صغير على العياط . !

ولكن محسن لم يتمكن من كبح نفسه وظل ينشج ويشهق ويتوسل بكلام متقطع . ويؤكد لها أنه إنما يطلب رؤيتها فقط . . نعم . إنه أصبح لايطمع إلا فى القرب منها . لأنه يعيش على ذلك القرب . فلتحب مصطفى أو غيره . فإنه هو لا يحول ولن يحول بينها و بين سعادتها . بل أن سعادتها سعادته . فقط لاتحرمه رؤيتها . وهل هذا شىء كثير أن تسمح له بذلك . بتلك الرؤية التى لاتكلفها شيئاً . وهى له كل حياته .

وهكذا ظل فمه ينطلق فى قنوط وعن نصف وعى بذلك الكلام الممزوج بالدموع . ورأت سنيه أن لاحيلة فى إسكاته وإيقافه . فتركته يتكلم ويهذى وذهبت هى إلى الشرفة الخشبية وفتحت نافذتها وأخذت تنظر منها غير سامعة كلمة واحدة مما يقول .

وتعب محسن قليلا فسكت ورفع رأسه فألفى تلك التى كان يحسبها على الأقل تنصت له . ألفاها تتراجع من النافذة حمراء الوجه وقد ابتسمت ابتسامة ساحرة يعلم لمن طبعاً . ؟ !

عندئذ أدرك محسن أن المرأة التى أمامه ليست سنيه . وأغلقت سنيه النافذة وعادت وصدرها يضطرب ابتهاجاً فما رأت محسن فى وجهها مبتل العينين حتى تجهمت وقالت متبرمة :

— أنت لسه هنا بتعيط ؟ ؟ كنت جاى علشان كده ؟ !

فوقف محسن . وأحس أن انصرافه ضرورى وأن قد انتهى الأمر .

وتقدمت نحوه وقالت بلهجة هادئة :

— مروح يتكم ؟

فجمع كل قوة جلده ليستطيع أن يهدئ أعصابه و يقول :

— أيوه . . . مروح . . .

ولكنه ظل واقفاً كالتمثال لايتحرك .

وكأن سنيه خافت أن يعود فيتكلم و يبكى بحجة الوداع . فابتعدت عنه فجأة ومشت ببطء كأنما تقوده إلى الباب . . . ولكنها كانت تقود شخصاً وهمياً لأنه لم يتحرك من مكانه .

و بلغت العتبة ووقفت كالمنتظرة . وصحا محسن لنفسه ولموقفه فرأى أنها تدعوه ضمنا بل وشبه صراحة إلى الرحيل . ورأى وقفتها المنتظرة فى تبرم ظاهر . أو بالأقل هى وقفة استحثاث واستعجال . فماذا ينتظر هو إذن؟ وما الذى يبقيه و يوقفه عن الانصراف من وجهها فى الحال . كما تريد هى . إن الحقيقة التى كان يحسها و يكتمها و يغالط نفسه و يعمى بصره حتى لايعرفها قد بدت له الآن على نحو لايستطيع كتمه ولا تخطئته . واضحة عارية . إنها فقط لا تحبه . بل إنها ما أحبته قط يوما . ولئن تلطفت معه فى الماضى إلى حد غره وخدعه فلأنها كانت خالية القلب ميالة بطبعها ككل فتاة إلى المداعبة والمضاحكة . أما وقد شغلها الحب . فما أسرع نسيانها عهد الخلو الماضى . والمرأة إذا أحبت حسبت حياتها ابتدأت من تاريخ الحب ونسيت ماقبل هذا التاريخ .

ولكن محسن لم يكن فى السن التى يعلم فيها كل هذا عن المرأة . هذه

بالذات كانت أولى تجاربه . ومع إحساسه التام فى تلك اللحظة بأن كل شىء انتهى وأن اسم سنيه يجب أن يمحى من ذاكرته إلى الأبد . فانه ظل واقفاً لايدرى ماذا ينتظر . كما ظلت هى بالباب وقد بدا عليها التعب من الوقوف . ولم تشأ أن تفتح فمها بالكلام لئلا ينفتح موضوع جديد . إنها محتاجة للانفراد فى حجرتها تتأمل خطاب مصطفى . ولسوء حظ محسن أنه جاءها فى يوم هو أسعد أيامها . يوم ليس فى عقلها ولا فى كيانها محل لشخص ولا لشىء آخر سوى مصطفى ، يوم كهذا عند المرأة . . . عند المرأة الرقيقة . بل عند النبية والقديسة يصيرها قاسية غليظة الكبد إذا رأت مايمس تلك السعادة . المرأة السعيدة المحبة أنانية إلى حد الوحشية.

أخيراً رآها محسن وقد أسندت يدها إلى الباب وبدلت رجلها بالأخرى لتستريح فعلم أنه يضايقها بوقوفه ووجوده . فمشى إلى الباب ثم مد يده إليها فى سكون . ثم دس يده فى جيبه وأخرج منديلها الحريرى فأعطاه إياها ورده إليها فى صمت فأخذته بغير كلام هى الأخرى . . ثم قالت له فى هدوء :

— متشكرة على الزيارة . وبالنيابة عن ماما أقول لك إنها متشكرة كمان قوى .

وتردد محسن قليلاً قبل الانصراف . وأخيراً لايدرى لماذا ولأية مناسبة أخرج من جيبه رزمة الشعر والنثر وأعطاها سنية فأخذتها فى دهشة . . وهو يذهب بسرعة وينزل السلم على عجل . . ولا يعلم إلا الله وحده سر قلب هذا الفتى فى تلك الساعة . .

الفصل الثالث والعشرون

لم يمض وقت طويل حتى انقلب حال شرفة مصطفى الصغيرة وبدت عليها مظاهر حياة أخرى . فبعد أن كانت مغلقة ليل نهار مهملة تتراكم على أرضها وحاجزها الأتربة لا يذكر وجودها هو لقلة مكثه بالدار ولا يشملها خادمه بنظرة لانصرافه إلى شئون أخرى . . غدت الآن محل الاهتمام الأول مفتوحة ليل نهار وقد اصطفت فيها أصص الأزهار والرياحين . . وأصبح مصطفى ينفق فيها من وقته ما كان ينفقه بالقهوة .

منذ ذلك التغيير ومصطفى سعيد برؤية ستية . قلما يمر يوم لا يشاهدها فيه ولا يحادثها . ولكن أى سحر تسلط عليه ولن ينساه أبداً . . يوم سمع صوتها لأول مرة ترد عليه تحيته مبتسمة من نافذتها فى جوف الليل ! ثم تلك الأحاديث المقتضبة اللذيذة فى الأيام التالية ! إنه ما كان يعلم أن هذه الفتاة على هذه الدرجة من الذكاء . ما ألذ حديثها وأحسن ردودها وأظرف إيماءاتها . لقد أيقن مصطفى أنه استكشف فيها بعد محادثتها مواطن جمال أخرى تضاف إلى جمال الهيئة والجسد . أحمال روح ؟ لا يدرى . إنه فقط يعلم أنه بات يحبها ألف مرة أشد من ذى قبل ولا يطيق يوماً يمر دون أن يسمع صوتها . لذلك هو ينتظر الليل بفروغ صبر حيث يسترها الظلام عن أنظار المارة . .

ولكن .. إذا كانت عيون المحبين ساهرة فإن عين «العذول» لا تنام . فما أسرع ما استكشفت زنوبة ما جد فى شرفة مصطفى وهذا متيسر لها فإن إحدى نوافذ حجرة الاستقبال تقع فى أعلى شرفة مصطفى تماماً وتطل عليها مباشرة . فما كان على زنوبة إلا أن تنظر منها إلى تحت فترى وتسمع كل ما يدور .

لذلك مضى عليها أيام وهى تغافل الجميع وتدخل حجرة الاستقبال ليلاً وتظل ملازمة لها حتى تنتهى المحادثة تحتها . وكأنما لم تحتمل طويلاً كتمان ما ترى فما لبثت أن أسرت ذلك إلى مبروك وأشركته معها فى المشاهدة والمراقبة لأنه الوحيد الذى لن يستطيع معارضتها والذى يتقبل دعوتها وشركتها بغير مناقشة ولا شجار . لا سيما وقد بدت أخيراً على الآخرين وفى مقدمتهم الصغير محسن أعراض هدوء غريبة ومخيفة . . نعم مخيفها لا تدرى لماذا وتشعر معها بأنه مستحيل أن تفاتحهم فى هذا الأمر .

وهكذا كلما جاء الموعد غمزت مبروك وذهبا إلى مركزيهما من النافذة وأخذا يتتبعان . . وزنوبة تهمس فى أذن الخادم بين فترة وأخرى وهى تشير إلى ما يجرى من حديث :

— سامع يا مبروك ؟

فيهز لها رأسه وينظر كمشاهد سينما لا يريد أن يقاطعه أحد .

ولكن فى كل آونة تغمزه زنوبه وتلكمه فى كتفه قائلة فى غيظ :

— شايف المسخوطه ؟ ؟

وأخيراً اشتد هياج زنوبة وثارت عاطفة الشر عند المرأة الغيرى فأبت إلا أن تعكر صفوهما بأى طريقة . وقالت لمبروك أن يذهب ويأتى « بالزّعفة » والمكنسة وأن يتظاهر بتنظيف النافذة كى يتساقط على مصطفى التراب والغبار . فأجابها الخادم مستنكراً :

— حد ينفض الشبابيك بالليل ؟ !

فصاحت به :

— أهو احنا كده . حد شريكنا ؟ !

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتد إلى قذف الأقذار والأوراق وقشور الفاكهة والخضر من نافذة حجرة الاستقبال خصيصاً لتسقط على شرفة مصطفى وتختار زنوبه وقت الليل أولاً لأنه وقت الميعاد وثانياً كى تحتج إذا عارض أحد .. بأنها إنما تقذف هذه الأشياء إلى الطريق ليلاً وهو خال حتى يكسحها الكناس فى الصباح لذلك ما كانت تنتهى من الطعام حتى تذكر مبروك قائلة :

— خلّيك فاكر ! اجمع قشر الخيار . .

فيجيبها الخادم غامزاً بعينه :

— واخد بالى . علشان نرميه للبط ..

ولكن هذا كله ما كان طبعاً ليحول دون خروج مصطفى إلى الشرفة . غير أن ما كان يغيظه هو أنه لم يكن ليستطيع الاعتراض . لقد منعته سنية منعاً باتاً أن ينبس بكلمة . فلقد فهمت سنية هذا التحرش .

ورأت الأصوب الصمت والتظاهر بعدم الالتفات ، فهى تعرف زنوبة لا تغلب فى مضمار الشجار وأنها لا شك تود فتح بابه بأى ثمن . فلماذا التعرض لها وللسانها البذىء ؟ إذن الاحتمال والسكوت المطلق عنها .

نعم أدركت سنية منذ البدايه أن هذه أعمال زنوبة وحدها .. فليس من إخوتها وأقاربها من يفكر فى عمل كهذا . حتى محسن الذى قست عليه سنية وأساءت معاملته وأخرجته شبه مطرود فى ذلك اليوم لا يستطيع برغم هذا أن يفعل ذلك .

من الغريب أن هذا الخاطر ذكر سنية فى لحظة بمحسن وبرزمته التى سلمها إياها قبيل رحيله وألقت بهـا فى غرفتها لا تدرى أين ؟ ودعاها ذلك إلى القيام للبحث عنها وقراءتها وقد مضى عليها زمن منسية مهملة .

فتحتها فتساقطت منها أوراق الشعر والنثر . فجعلت تطالع وتصادف اسمها مقروناً بصفات الحب والعبادة مرفوعاً فى مخيلة هذا التلميذ الشاعر وفى قلب هذا الصبى الصغير إلى مراتب الآلهة . ثم قرأت قطعاً كالمذكرات يبثها فيها آلامه ! ! استغربت سنية كيف استطاعت أن تجازيه على ذلك بهذه المعاملة الوحشية . وذكرت بكاءه أمامها وانصرافها عنه وقتئذ إلى التفكير فى حبها هى . ثم كيف أنها دعته إلى الانصراف على نحو مذل . أهى تفعل كل هذا ؟ هى التى على الأقل تعرف اللياقة ! أهكذا المرأة إذا أحبت تنسى حتى اللياقة ؟ نعم إنها ظلمت هذا الفتى . هى لا تنكر ذلك . . وتود لو تستطيع إصلاح ماحدث . . . لو تستطيع أن تخفف عنه ؟ إن ضميرها

يؤنبها وتحس بوقر هذا الاجحاف . ولكن كيف ؟ إنها امرأة تحب . وإنها لا تستطيع أن تتصرف فى جزء صغير من قلبها ولا من فكرها لشخص آخر غير . . .

هنا تلاشى الظلم والمظلوم . ولم يبق لمحسن ولا لشعره ونثره أثر فى نفسها وقامت لساعتها إلى المرآة ثم نظرت إلى السماء ثم إلى المنبه الصغير فوق منضدة السرير لترى ما بقى من الوقت على الليل .

* * *

برز القمر مستديراً فى ليلة التمام . ودقت الساعة العاشرة . ونام أهل المنزل وسكنت الحركة . فنهضت سنية من مقعدها الطويل وارتدت فى الظلام فوق قميصها الحرير « روب دى شامبر » من الموسلين الوردى . . ورتبت بكفيها شعرها الجميل على عجل ثم ذهبت إلى النافذة ففتحتها فتدفق فى وجهها نور القمر فبغتت وتراجعت إلى قلب الحجرة مسرعة . ولكنها لم تلبث أن ابتسمت إذ رأت أنه نور الكوكب الفضى يضىء أرجاء الحجرة المظلمة . وعادت فتقدمت بغير خوف إلى النافذة فإذا مصطفى يضحك كأنما رأى وفهم سر ذعرها اللذيذ . كان الشاب يرتدى « بيجاما » ياقوتية اللون موشاة بشرائط ذهبية تلمع فى الضوء . كما كان يلمع شعره الكستنى المتموج . كان كل ما فيه تلك الليله الجميلة يدل على الثراء والجمال . وكانت هى صامتة ومبتسمة تتأمل القمر فى استدارته يطل عليهما من سماء شارع سلامه الهادئ تلك الساعة فيعتريها فرح داخلى فتضحك ضحكة رقيقة يبدو من خلالها ماس أسنانها يبرق فى شعاع القمر . وكأنما بهرها

النور أخيراً فإذا هى ترفع يديها وتفرك عينيها جذلة . . ومصطفى يرنو إليها مسندا ذراعيه إلى حاجز الشرفة وكأن قلبه فاض فجأة . . . فمد عينيه إليها وقال بلهجة التأنيب تلطفها نبرة حب متهدجة :

— إنت تأخرت الليلة نص ساعة . !

فأجابت مبتسمة :

— صحيح .

— إيه بقا السبب ؟

فنظرت إليه بخبث ثم قالت ضاحكة :

— السبب ؟ مش عايزة أقطع عليك مناجاة القمر .

فقال لها على الفور :

— أى قمر ؟؟

ثم أشار بأصبعه إلى نافذتها التى هى فيها وقال :

— القمر الوحيد اللى أعرفه يطلع من الشباك ده ...

فضحكت وهى مطرقة فى شبه حياء .

وأرادت أن تقول شيئاً فأسرعت على نحو فجائى محسوس تقول :

— مصطفى . . ! الليلة حر قوى . . !

فلم يجبها مصطفى كأنما أمعضه هروبها بالحديث إلى ناحية أخرى لا معنى لها . غير أن هذه الجملة من سنيه ككل جملها لها كل القيمة عنده . وجعل مصطفى ينظر إلى الليل حوله . . . نعم كان الهواء ساكناً . كأنه

يكتم أنفاسه كيلا يعكر عليهما الهدوء ... وذكر مصطفى أنهما الآن فى أوائل شهر مارس فقال وهو يستقبل بوجهه النور العائم الراقص فى هذا الجو الراكد :

— ابتدا الربيع . ! !

وهنا تنفس الهواء قليلا . فهب نسيم رقيق داعب شعر سنية البديع وبعثر خصلة منه على صدغها وفوق جزء من إحدى عينيها . فرمقها مصطفى وهو يتقطع غراماً ويود لو يلثم تلك الخصلة على تلك العين ...

وباغتت سنية منه تلك النظرة الطويلة فارتجفت وخفضت بصرها فى لذة داخلية . . ثم عادت فى شىء من الارتباك فرفعت رأسها وأصلحت ترتيب شعرها الذى بعثره النسيم ونظرت إلى السماء وقالت ضاحكة فى دلال ورفة :

— فى الربيع على رأى الروايات تمطر السما بدل المية والثلج ورد وأزهار !

ولم تكد سنيه تتم جملتها حتى سقط على رأس مصطفى من السماء قشر كرنب وخيار . . .

فرفع رأسه إلى فوق وهو يصيح :

— أهى مطرت ! وبدل الورد والأزهار قشر كرنب وخيار . !

ولم تتمالك سنيه أن أدارت وجهها وانفجرت ضاحكة ...

وأراد مصطفى أن يتوجه بالكلام إلى النافذة التى فوقه والتى سقط منها

الكرنب . . لكنه ذكر تنبيه سنية ومنعها إياه . . فالتفت إليها وأشار لها بيده سائلا :

— اسكت كان المره دى ؟

فأجابته سنيه مشيرة بأصبعها على فمها علامة الصمت . . .

فتمتم مصطفى قائلا :

— أمرك .

ولكن خطرت له فكرة فجائية فأشار إلى سنية بالانتظار قليلا فى مكانها ثم دخل وغاب لحظة ثم عاد حاملا مظلة فى يده . . فتحها ووضعها فوق رأسه يتقى بها . . .

فما رأت سنية ذلك حتى أغرقت فى الضحك وهى تحاول ألا يرتفع صوتها . . .

فى هذه اللحظة أيضاً غمزت زنوبه مبروك المتعب المتثائب من الوقوف والسهر والمراقبة . ولفتت نظره إلى مظلة مصطفى هامسة .

— شوف يا مبروك ! شوف المضروب طالع لنا بتقليعه جديده . . ! !

فنظر مبروك وحملق إلى المظلة ثم قال :

— دى بلا قافيه عامله زى الشمسية ! !

— ماهى شمشية . . جاتك خيبه . . أمال هى إيه ؟ ؟

فنظر مبروك إلى القمر الوهاج ثم قال :

— لازم خايف تصيبه ضربة شمس . . !

فصاحت به زنوبه فى همس :

— جاتك نيله . . . دا القمر .

فقال مبروك :

— زى بعضه . دى حتى من غير مؤاخذة ضربة القمر أقوى . . .

فقالت زنوبه بقلب خافق وهى ممسكة بقشرة قلقاس كبيرة ستضرب بها رأس مصطفى :

— ضربة أنهى قمر يا مبروك ؟ ؟

قالت ذلك بصوت متغير خافت التفت له مبروك فى الحال ونظر إليها وإلى القشرة التى بيدها وفهم ما تريد بجملتها هذه فقال فى نفسه :

— يا حفيظ !

فألحت عليه زنوبه وهى تهم بالضربة :

— ضربة أنهى قمر ؟ ؟

فأجاب مبروك فى الحال كالمتملق :

— القمر أبو قلقاس . . !

فضحكت زنوبه متكلفة الرقة وقد أعجبها قول مبروك . . وصدقته وقالت متلطفة ممازحة :

— آه يا كداب ! . .

وقذفت بقشرة القلقاس على مظلة مصطفى وهى تقول :

— هو ده بيحس بضربة ... حد ! ..

ثم دست يدها فى « صفيحة الزبالة » بجانبها وغمزت مبروك وهمست :

— إياك يا مبروك تهمد والا تنام ! . . الصفيحة لسه مليانه . . !

فأجابها الخادم :

— هدى خاطرك انت .. وروقى بالك .! وروحى نامى ..! ألا بلا قافية ما تروحى إنت تنامى . . .

فنظرت إليه زنوبه نظرة شك وارتياب وقالت :

— يعنى أتكل على الله وعليك وأروح أنام ؟ !

فأجاب مبروك على الفور :

— قوى . . قوى . . ! حطى فى بطنك « قشر » بطيخة صيفى ! أنا وشرفك ما اتحرك من هنا إلا بعد ما أفرغ صفيحة الزبالة بحالها على راسهم .

فمشت زنوبه وقد أنهكها التعب والوقوف هى أيضاً ولكنها التفتت إليه قبل أن تبرح الحجرة وقالت منبهة :

— أظنك رايح تدلقها مرة واحدة وتمشى ! ! .

قشرة قشرة زى ما علمتك . . فاهم ! ! .

— حاضر . . على راسى . . قشره . . قشرة . روحى إنت بقا من غير مطرود . . .

وترددت زنوبه ووقفت غير مؤمنة بمبروك وقالت فى نفسها من يضمن لها تنفيذ المهمة على ما يرام . إنها تريد أن يقطع عليهما الحديث بهذا

الرذاذ الكرنبي حتى ينتهيا دائماً إلى لاشيء ولا يتم بينهما كلام أو اتفاق ..

فعادت أدراجها إلى مبروك تكلمه فى ذلك .. فضاق الخادم بها ذرعاً وصاح بها :

— ودى شغلة إيه دى ! ! مش لك على من غير مؤاخذه أفركش لك شملهم الليلة ! وحياتك عندى لأخليها عليهم آخر ليله فى دى البلكون ..! روحى نامى بس . !

فاطمأنت زنوبه قليلا للهجة مبروك القوية ورددت مستبشرة :

— آخر ليله لهم ! ! طب أما أشوف شطارتك . . . والنبى دا يبقى لك عندى الحلاوه .!

وسارت إلى الباب فى بطء وتمهل ومبروك ينظر إليها مستحثاً ويقول :

— أيوه كده زقى عجلك . !

وخرجت زنوبه أخيراً من الحجرة وتركت مبروك يتنفس الصعداء ويقول ناظراً إلى حيث ذهبت :

— انشا الله تنقرضى !.. يعنى يا ربى مش حرام عليك كل ده !

ونظر من النافذة تحت فى احتراس . وتأمل هذين المتحابين الجميلين .. وتحرك فيه إحساس الإنسان إذ يرى حمامتين أو عصفورين جميلين ذكراً وأنثى يتناجيان ... ولعله الإحساس بالجمال . . . إحساس التناسق .!

لا شك هذا الإحساس هو الذى جعل مبروك يقول وهو ينظر إليهما وضوء القمر الجميل يظلهما بجناحه :

— وحياة النبي حلوين ! الله يهنيهم ببعض !

ثم ترك الحجرة حاملا صفيحة الزبالة ومشى على أطراف قدميه حتى وصل إلى نافذة المرحاض التى تطل على حارة صغيرة خلف المنزل فألقى ما بها من قشر ... ثم ذهب إلى فراشه فوق مائدة الطعام فى هدوء وهو يقول لنفسه :

— هو كان الجدع انعمى لما يبص بلا قافيه لوش الحصان زنوبه !.. إللى ماهى عاجبانى أنا يا فقير !

وهكذا انقطع المطر عن مصطفى . غير أن هذا لم يمنعه من القلق ومن نشر المظلة فوق رأسه . وأنى له أن يدرى أن لا محل للخوف منذ الآن . ؟

ورأت سنيه قلقه فقالت له فى لهجة جد أزعجته وأغضبته :

— أحسن طريقه إنك تعزل من البيت ده .

ولكنه اكتفى بأن رمقها بنظرة حزن وغضب وتقريع .

غير أنها تجاهلت وقالت فى خبث :

— إلا إذا كانت أجرته رخيصة .

فثار مصطفى وقال منفعلا :

— أجرته ؟ ؟

فقالت فى هدوء وابتسام ومكر :

— طيب ما تزعلش . بلاش أجرته . قريب لشغلك ؟

فلم يجب مصطفى وأطرق قليلا . ثم رفع رأسه وقال :

— بالعكس .

فقالت متظاهرة بالاستغراب :

— بعيد عن شغلك ؟ .

فقال مصطفى على الفور :

— جدا . . جدا . . جدا . .

فقالت سنيه فى الحال :

— وليه تسكن بعيد عن شغلك ؟ !

فأجاب مصطفى فوراً وفى شبه احتجاج :

— عايزانى أسكن فى المحلة ؟ ؟ ! مستحيل !

— المحلة ! !

— أيوه المحلة .. المحلة الكبيرة .

— شغلك فى المحله الكبيرة وساكن هنا ؟ ! أنت صنعتك إيه ؟

— صنعتى . . صنعتى . .

— إذا كنت مكسوف تقول ... بلاش . !

— أبويا صاحب محل مانيفاتورة راجى بالمحلة الكبرى .

— وانت ؟ .

— أنا . .

— صاحب كيف تقعد على قهوة شحاته ! !

قالت ذلك متخابثة ومتقاسية وهى تخفى فمها بكمها الحريرى الواسع حتى

تخفى ابتسامتها . وصمت مصطفى قليلا مبغوتا ونظر إليها . إلى عينيها السوداوين الظاهرتين فوق كمها .. وحسب لأول وهلة أنها تهزأ به .. فغلى دمه وانفجر يحدثها بكل تاريخه وبكل شئونه فى صدق و إخلاص . . فأعلمها برغبته فى تصفية المحل أو بيعه للخواجه كازولى وعن ميله إلى الالتحاق بوظيفة فى إحدى مصالح الحكومة حتى يظل فى القاهرة . وأنه لم يقدم على خطبتها من أهلها حتى الآن لأنه لم ينفذ خطته بعد . وأنه متى حصل على الوظيفة وأقام فى مصر فأول ما يفعل أن يبحث عن منزل آخر لائق فى حى حديث ويبعث امرأة خاله تاجر القطن تخطب سنيه إلى أمها ؟

أصغت سنيه إلى كلامه الطويل ولم تكن تجهل أغلبه . إنها بذكائها قد أدركت ذلك من قبل . ولكنها أرادت أن تعلم من فمه حقيقة أمره فاحتالت حتى استدرجته على هذا النحو .

وعند ما أتم كلامه وصمت مطرقا أخفت سنيه رأسها بين ذراعيها وأفرغت كل ما فى نفسها من ضحك وسرور ثم رفعت رأسها متظاهرة بالتجهم والغضب وقالت :

— كل اللى فهمته منك دلوقت .. إنك وارث .. زى الوارثين العاطلين اللى بنقرا عنهم فى الكتب .

فالتفت اليها مأخوذاً .

وابتعدت سنيه قليلا عن نافذتها وقالت فى لهجة غضب وازدراء :

— حضرتك طالب وظيفه ! وكمان كنت عايز تخطبنى ؟ !

ارتعد مصطفى ونظر إلى وجهها المكفهر وشفتيها المرتسم عليهما الاحتقار فخيل إليه أنه لا يفهم شيئاً وأن سنيه تغيرت فى لحظة على نحو يرعب وأراد أن يتكلم أو يستوضح أو يتوسل و يستعطف ولكنها لم تمهله . . . بل أمسكت بعارضتى نافذتها وقالت :

– كنت فاكراك أحسن من كده !

ولم تزد وأغلقت النافذة فى وجهه .

فاسود كل شىء فى عين مصطفى . . .

الفصل الرابع والعشرون

جاءت الليلة التالية وخرج مصطفى إلى شرفته ينتظر سنية وهو فى أشد حالات القلق خائفاً أن تكون جادة فيما فعلت البارحة وأنه لن يراها . وظلت الساعات تمر وهو مصوب عينيه إلى نافذتها المغلقة فى شبه تضرع وكلما ذهب من الليل جزء اهتز يأساً وطلب إلى الله فى حرارة أن يمن عليه برؤيتها الليلة ولو دقيقة واحدة . . لأن غيبتها عنه أمر لا يطاق . . ولأن غيابها الليلة بعد ما حدث بالأمس له معنى مخيف .

فلتبرز الليلة كى يطمئن . . ولتغب مرة أخرى إذا شاءت . . إنه ليشترى منها اللحظة من هذه الليلة بأى ثمن .

لم تفد شيئاً هذه التضرعات التى لم تخرج من حدود صدره الضائق . . . ولم يعرها أحد اهتماماً . . . ولم يعلم بها حتى الليل الساكن حوله الذى مضى أكثره وهو ما زال ينتظر فى أمل !

* * *

مرت ثلاث ليال على هذا النحو خالها مصطفى ثلاثة أعوام . أى جحيم هو فيه الآن ؟ لقد كان فى الفردوس ولا يدرى . وخرج منه لا إلى الأرض فقط بل إلى الجحيم مباشرة . وما الذى جناه ؟ ما هى تلك الشجرة المحرمة التى عصاها فيها حتى تخرجه وتطرده من الهناء الذى كان فيه . . وتمنع عنه نورها الذى كان ينبثق من هذه النافذة ! ؟

وجعل مصطفى يسترجع فى ذهنه كل عباراتها الأخيرة ، عسى أن يهتدى إلى سبب غضبها . إذ من ساعة غيبتها لم يكن يفكر إلا فى شىء واحد : وحشته القاتلة بدونها .

أتراها ازدرته لأنه وارث عاطل ، ولكنه قال لها إنه يبحث عن وظيفة . أم تراها ازدرته لأنه ترك محل تجارته وعمله وجاء يقطن القاهرة ، وذكر قولها : « وانت صاحب كيف تقعد على قهوة شحاته » ! إنه ليس يدرى قصدها تماماً . . ولكن إحساساً خفياً هتف به أنه حقيقة وارث عاطل ، وأنه يستحق فى الواقع احتقارها . إن مثله أمامه عمل هائل بدأه أبوه . وكان ينبغى له أن يستمر فيه . . لو أنه شىء آخر غير وارث عاطل كسلان واهن الهمة . ولأول مرة أحسّ احتقاره لنفسه . ودب فيه فجأة شىء من القوة والعزم . ولمعت عيناه . وكأن حجاباً من الغمام انقشع عن بصره فرأى الحقائق واضحة و إذا هو يقول فى نفسه :

— أما أنا مغفل صحيح ! وظيفة بعشرة جنيه ! . . مع أن المحل لو أعتنى به يكسبنى على الأقل ١٠٠ جنيه إيراد شهرى ! !

ثمّ ذَكر قولها : « حضرتك طالب وظيفه ! وكمان كنت عايز تخطبنى ؟ ! »

أتراها احتقرته لأنه يبحث عن وظيفة حقيرة . مع أن لديه عملا أهم وأجدى . نعم لقد فهم الآن . أو ليس لها كل الحق فى احتقاره واتهامه بالغفلة أو على الأقل بنقص فى الرجولة والنشاط ؟

— « أنا كنت فاكره أنك أحسن من كده ! »

هذا كان آخر ما قالت له .

وهنا نهض مصطفى كأن قوة دفعته . وصاح بخادمه أن يهيئ حقيبة السفر . وازدحمت فى رأسه الأفكار والمشاريع والأعمال . وأحس قوى فى نفسه قد انكشفت له .

وبرق فى رأسه خاطر . أترى غضبتها عليه مدبرة ؟ كى تستثير فيه وتستحث ذلك النشاط الخامد ؟ من يدرى . إنها على غاية الذكاء . وأحس رغبة هائلة فى رؤيتها . على أى حال لن يستطيع مغادرة المكان بدون إخبارها بما اعتزم . إنه مستعد لفعل العجب والمحال من أجلها . كذلك لا بد له أن يعلم منها شيئاً عن أمر مستقبلهما كما علمت هى عن ماضيه وحاضره . إنه لا يحجم عن سكنى المحلة الكبرى بل أقاصى الصعيد ما دامت هى معه .

ولكن كيف يراها ؟ !

وفجأة بدا لمصطفى أن نافذتها المغلقة لا يمكن أن تظل مغلقة طول الليل والنهار . إنها لا شك تفتحها فى الصباح المبكر عند نهوضها من الفراش كى يدخل الهواء والنور حجرتها . فلماذا لا يتربص لها فى الصباح المبكر ؟ !

ثم عاد فخطر له خاطر آخر . إن الليل حار ولا يمكن أن تظل فى حجرتها محرومة الهواء طول الليل . إنها بلا ريب تغلق نافذتها خصيصاً فى ساعات

الموعد فقط حتى إذا ما مر الهزيع الأول من الليل قامت وفتحتها ، وانتهى مصطفى من كل ذلك إلى شيء :

إنه سيسهر الليل بأكمله فى الشرفة يرقب النافذة ، إن لديه الآن من العزيمة ما يفعل به أكثر من ذلك .

وجاء الليل ، ومضى الموعد . فأتى مصطفى بمعطف ثقيل تدثر به ، و « كوفية » لفها حول رقبته وأتى بمظلته التى لا تفارقه من يوم قشر الكرنب والقلقاس . زيادة فى الاحتياط . وأخرج إلى الشرفة كرسياً كبيراً وجلس فوقه القرفصاء ناشراً المظلة على رأسه وأخذ يتربص .

على أن مصطفى لو درى ، لاطمأنّ من جهة زنوبة ، فإنها سرعان ما أدكت غيبة سنية ، وأنها أول من فرح فى مصيبة مصطفى بهذا الغياب غير أن زنوبة كانت تعزو سر هذه الفرقة بين المتحابين إلى مبروك ومهارة مبروك الشخصية وقد ارتفع قدره فى عينيها من ذلك اليوم ، أليس هو الذى قال لها :

— روحى نامى ، وحياتك لتكون آخر ليله لهم ؟ !

إنه وعدها بذلك ، وها هو مبروك نفذ وعده ، وكانت تلك حقيقة آخر ليله لهما معاً ، وأخذت زنوبة تستجوب مبروك معجبة بما فعل حتى أحدث هذه النتيجة الباهرة :

— وحياة أبوك يا مبروك قل لى بس عملت ايه ؟ ؟

ولكن مبروك كان أكثر منها عجبا وأشد دهشة :

— عملت ايه ؟ ! ! مين . . أنا ؟ !

غير أنه كان مضطراً إلى إخفاء دهشته متسائلا فى حيره وارتباك :

— اقول لهـا ايه ! ! ! وانا بلا قافية رميت الصفيحة من شباك « المرتفق » . . ؟ !

وذكر عطفه على هذين المتحابين فعجب لمـا صارا اليه ، وأخذ يتساءل عن سبب ما بينهما من جفاء فى شبه كآبة كأن الأمر يهمه .

وأخيراً نظر إلى زنوبة بطرف عينيه وقال فى سره :

— كله من عين وش النحس ! حسدتهم . .

ولم تمهله زنوبة فأعادت الكرة :

— بس عملت إيه يا مبروك بعد ما سبتك : مش تقول لى وتريح قلبى .

فالتفت اليها مبروك وفكر لحظة ليخترع شيئاً وفى النهاية قال :

— اقول لك الحق والا ابن عمه .

— لأ . الحق .

— الحق . بقيت امسك قشرة القلقاس والا الكرنب واقرا عليها بلا قافية عدية يس وارميها بينهم .

فابتسمت وقالت له فى اعجاب وحماسة :

— الهى ما تعدم عينك وحيلك يا مبروك ! دا انت اتابيك ناصح ورامى ! عينى عليك باردة !

* * *

فى تلك اللحظة كانت سنية بجانب والدتها تحادثها وتضاحكها متظاهرة بعدم الاكتراث لشىء . ولكنها فى الواقع كانت تريد استدراجها إلى موضوع يهمها .

تناولت سنيه يد والدتها وقالت لها :

— انت تحبينى يا نينه ؟

فرفعت الأم رأسها إلى ابنتها وقالت :

— حد يكره ضناه !

فقالت سنيه فى خبث :

— علشان كده يانينه لما طلبونى الخطاب السنه اللى فاتت قلت لهم : ما عندناش بنات تسافر وتتغرب . ! .

فقالت الأم :

— معلوم يا بنتى ، وأنا حيلتى غيرك ! أنا عايزه أفرح بك جانبى .

فقالت سنيه بلهجة معنوية :

— صحيح يا نينه . انت دايماً على فكرك القديم .

وسكتت برهة . ثم فجأة سألت فى رفق :

— انت رحت مع بابا السودان ؟

فأجابت الأم :

— يا بنتى أبوك راح قبل ما يتجوزنى !

فقالت سنيه مصرة :

— افرضى أنه كان راح بعد ما اتجوزك كنت رحت معاه السودان ؟!

فأجابت الأم على الفور :

— يا ندامه ! الواحده مش تبع جوزها ما يروح تروح !

فقالت سنيه متخابثة :

— ووالدتك كانت ترضى تسيبك تروحى ؟

فأجابت الأم :

— أمى ؟ أمي ماتت وأنا صغيره .

فقالت سنيه :

— افرضى أنها كانت موجوده . ؟ .

فأجابت الأم :

— الله يرحمها كانت ست أميرة عاقله . . .

فقالت سنية على الفور :

— زيك . . مش كده ؟

وصمتت الفتاة لحظة . ثم استأنفت الحديث فى لباقة وهى تدرج به من طبقة إلى أخرى حتى بلغت به حيث استطاعت أن تفهم والدتها عن

طريق غير مباشر أنها مخطئة إذا كانت تظل تشترط إقامة ابنتها فى مصر بجانبها أساساً للزواج . وأنها إنما تشترط ذلك بدافع الاستئثار بابنتها لا المصلحة . وواجب الأم : أن تكون أقل أثرة وأنانية فى سبيل مستقبل ابنتها وهنائها . كما أن واجب الزوجة أن تتبع زوجها أينما حل — كما قالت امها نفسها منذ لحظة — وان ترافقه إلى البلد الذى تدعوه إليه مصالحه واعماله .

لم تكن سنيه فتاة من الطراز القديم . إنها تريد أن تهتم بعمل زوجها وأن تدفعه إلى الاهتمام به . إنها كانت تدرك على وجه التقريب أن لمثل مصطفى مصالح وأعمالاً فى الأرياف . على الأقل مزارع وأطيان ورثها عن أبيه . لذلك لم تتردد فى التفكير فى الذهاب معه والمعيشة و إياه فى الأرياف إذا اقتضى الأمر .

*
* *

فتحت سنيه نافذتها فى صباح اليوم التالى فإذا هى أمام منظر غريب مضحك فى شرفة مصطفى : منظر رجل قد التف « كالكرنبه » فى معطف كبير وتدثر فوقه بغطاء سميك « بطانيه » وجعل خلف رأسه الملفوفة بالكوفية وسادة صغيرة مسندة إلى الحائط وفوق كل ذلك مظلة مفتوحة قد انكبت على رأسه فأخفت جزءاً من وجهه . وهو نائم يغط ..

عرفته سنيه فضحكت من قلبها . إنه مصطفى . وكل الدلائل تجمع على أنه مضى ليلته فى الشرفة هكذا . مسكين .!. إنه ولا شك كان ساهراً

فى انتظارها . ولكن ساعة الصباح ونسيم الفجر لفح جفونه فأرداه نائماً يغط رغم أنفه .

ترددت سنيه قليلاً . أتوقظه أم تتركه ؟ ولكن تغلب عليها حب الدعابة فتركت النافذة مفتوحة واختبأت خلف الستائر لترى ما يكون منه وارتفع النهار وتسلطت الشمس على وجه مصطفى ففتح عينيه وفى الحال تذكر أنه جاء لانتظار ساعة فتح النافذة فالتفت إليها بسرعة البرق فإذا هى مفتوحة ولا أحد بها . فضرب رأسه بيديه يأساً وشد شعره غيظاً وهو يقول :

— جت وفتحت وراحت وأنا نايم زى الجحش ! !

وسمعت سنيه ذلك من مكمنها فضحكت فى نفسها مسرورة وهمت بالظهور له . لكنها رأته جمع أمتعته وأرديته ومظلته وغادر الشرفة يائساً . فرأت أن تسكت وتنظر ماذا يصنع بعد ذلك ، واعتزمت مراقبته عن كثب وهى مختفية عنه .

أدرك مصطفى أن النوم الملعون لا بد غالبه إذا أراد السهر طول الليل ، وأن أشد ما يهاجمه ذلك النوم ساعة الفجر وقرب بزوغ الصبح . فماذا يفعل له ؟ فكر قليلاً ، وأخيراً اهتدى :

فما جاءت الليلة القادمة حتى خرج مصطفى إلى الشرفة بمتاعه المعتاد وأرديته ووسائده ومظلته كما فعل فى الليلة السابقة التى ضاعت منه . إلا أنه أتى معه بمنبه ذى جرس هيأه على الساعة التى يريد الاستيقاظ فيها إذا

ما غلبه النوم . وجلس القرفصاء على الكرسى الكبير بعد أن التف اللفة المعهودة ونشر المظلة المنكبة . ووضع المنبه على جدار الحاجز أمامه مقسما أن لن تفوته الفرصة بعد الآن .

ونظرت سنيه إلى كل هذا من خلف نافذتها فأضحكها هذا المنبه الواقف على جدار الشرفة ، وودت لو تستطيع صبراً حتى الصباح لترى كيف يدق هذا الجرس من الشرفة وماذا عسى المارة فى الطريق ساعة الصباح يقولون إذا سمعوا جرس المنبه ورفعوا رؤوسهم وأبصروا ذلك الأفندى النائم بمتاعه ومظلته ومنظره الغريب فى الشرفة ! ! .

ولكنها ذكرت نومة مصطفى ليلة الأمس والبرد الذى يتعرض له فى الفجر من أجلها . فكرهت أن تتركه يبيت فى الشرفة الليلة أيضاً لتتمتع هى بالمنظر المسلى .

وقاربت الساعة منتصف الليل ففتحت النافذة محدثة عمداً بعض الصوت فهب مصطفى ناهضاً على قدميه كالخفير النائم إذا دهمه ضابط نوبتجى . وما كاد مصطفى يتبينها ويدرك أنها هى سنية التى فتحت النافذة . وأنها هى لا طيفها . وأن يأسه من رؤيتها كابوس زال حتى لمع وجهه ببريق أمل وفرح غريب وأقبل نحوها باندفاع حال دونه حاجز الشرفة . كأنما نسى أن بينهما فاصلا من الفضاء .

ولكن سنية كتمت إحساسها وتظاهرت بالجد وقالت :

— انت لسه ما سافرتش المحلة ؟!

فردد مصطفى فى استغراب :

— المحلة ! ! !

— أيوه المحلة .

فأجاب مصطفى بصوت مملوء عاطفة :

— اسألينى إذا كنت تحركت من البلكون ده من ليلتها !

فأخفت سنية ابتسامة وقالت فى لهجة الغضب والتهديد :

— يعنى عايزنى أقفل الشباك مرة ثانية ؟!

فتقدم إليها فى تضرع :

— لأن المرة الثانية رايح أبات فى المستشفى ! .

فقالت ملطفة من لهجتها قليلا :

— و إذا كنت تروح تبات فى المحله مش يكون أحسن ؟ مش تهتم بأشغالك يا مصطفى ؟ !

فخفق قلب الشاب لهذه الجملة الأخيرة خفقة شديدة . ورفع رأسه بعد قليل ، ونظر إليها نظرة طويلة ، ثم قال بعد فترة بصوت عزم قاطع :

— سنيه .

ثم سكت ، ثم استطرد فجأة :

— أنا مسافر بكره المحلة .

فقالت بفرح :

— مسافر ؟! .

فأجاب على الفور :

— لكن بشرط . . .

ووقف . . ثم قال بغتة :

— رايح أبعت مراة خالى بأول قطر . . .

فأطرقت سنيه وأحمر وجهها . . .

الفصل الخامس والعشرون

لقد صدق نظر الأثرى الفرنسى :

« أمة أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى . . أو معجزات ! أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون ولا يرون قلبها العظيم بارزاً نحو السماء من بين رمال الجيزة ! لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد . . ! » .

لعل هذا الأثرى الذى يحيا فى الماضى كان يرى مستقبل مصر أكثر من أى انسان .

فى شهر مارس . . . مبدأ الربيع . . . فصل الخلق والبعث والحياة . . . أخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار . . .

وكذلك مصر أيضاً . . . قد حبلت وحملت فى بطنها مولوداً هائلا . . . وها هى مصر التى نامت قرونا تنهض على أقدامها فى يوم واحد . إنها كانت تنتظر — كما قال الفرنسى — تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة يبعث من جديد . . . وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح

* * *

كان محسن فى صباح اليوم المشهود فى فصله ، وإذا أحد التلاميذ قد أقبل وهو يلهث . . وكلما صادف فى طريقه فئة لفظ بضع كلمات سريعة

بلهجة خطيرة فتتغير وجوه السامعين .. حتى بلغ الخبر مسامع محسن . وما كاد يفكر فيه وفى معناه حتى ألفى المدرسة بأجمعها حوله تتهامس وتتناقش وتتساءل . ودق جرس الدخول فلم يأبه له أحد ، أمر عجيب إذ ذاك فى تاريخ المدارس .. أن يحتشد الطلبة هكذا وفى ملامحهم معنى واحد هائل ويدعون إلى الدرس فلا يجيبون .. كأنما هو يوم القيامة .

كان الجميع يتحدثون عن رجل لم يسمع به محسن من قبل .. ولكنه أحس فى لحظة أن حياته يجب أن تعطى لهذا الرجل . وإذا الحماسة تبلغ به إلى حد الهتاف فى رفاقه التلاميذ أن اتركوا المدرسة وأخرجوا لملاقاة زملائكم طلبة المدارس الأخرى .. فان الأمر أجل من أن نشتغل بغيره الساعة ، ولعل هذا كان نفس إحساس رفاقه ، فإذا الجميع يهرعون إلى باب المدرسة ولم تمض دقائق معدودة حتى كانت المدرسة بأجمعها سائرة فى الطريق ، وخطر لمحسن أن يذهبوا لملاقاة مدرسة الهندسة حتى يجتمع بعبده ولأن هذه المدرسة قريبة منهم . إلا أنهم ما كادوا يسيرون قليلا حتى لمحوا حشداً من الطلبة مقبلا عليهم فتبينوه فإذا هم طلبة الهندسة خرجوا أيضاً وإذا محسن — لدهشته — يرى على رأسهم عمه عبده يلوح بذراعيه ويهتف صائحاً وقد احمر وجهه وقطب حاجبيه وفى رنين صوته مايدل على هياج عصبى عظيم . وانضمت المدرستان إحداهما إلى الأخرى وسار الكل لملاقاة المدارس الأخرى ، واقترب محسن من عبده ووضع ذراعه تحت إبطه وسارا معاً يهتفان .. وبين الضجيج والأصوات الراعدة كان عبده يسأل محسن :

— خرجتم ازاى ؟!

فيجيبه محسن بكل بساطة :

— زى ماخرجتم أنتم .

ولعل هذا السؤال وذاك الجواب تبودلا مراراً عدة بين جميع الطلبة وجميع المدارس ... و بين كل طبقات الشعب ... إن كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام ... الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة . ولم يفهم أحد إذ ذاك أن هـذه العاطفة انفجرت فى قلوبهم جميعاً فى لحظة واحدة .. لأنهم كلهم أبناء مصر لهم قلب واحد .

* * *

ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار ، و إذا أربعة عشر مليونا من الأنفس لاتفكر إلا فى شىء واحد : « الرجل الذى يعبر عن إحساسها .. والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة قد أخذ وسجن ونفى فى جزيرة وسط البحار ... »

* * *

كذلك أوزوريس الذى نزل يصلح أرض مصر و يعطيها الحياة والنور أخذ وسجن فى صندوق ونفى مقطعاً إربا فى أعماق البحار . ! .

وانقلبت القاهرة رأسا على عقب فأغلقت الحوانيت والمقاهى والبيوت وقطعت المواصلات وعمت المظاهرات . وقام نفس الهياج فى جميع أرجاء الأقاليم والأرياف . و إن الفلاحين لأشد من أهل المدن فى إظهار احتجاجهم

وغضبهم . فلقد قطعوا الخطوط الحديدية ليمنعوا وصول القطرات المسلحة . وأحرقوا دور البوليس . . .

***

وعاد محسن إلى المنزل فألفى الرئيس حنفى يحدث زنوبه بما وقع ويشرح لها الأسباب والعلل وهو يفرك ركبتيه تعبا وجهدا فلقد مشى هو أيضا فى مظاهرات عدة طول النهار . ولم يلبث سليم أن عاد كذلك وقد اندمج فى جموع أخرى . وجعل كل يتحدث بما رآى وسمع . ويتنبأ بما سيحدث ويروى ما تتناقله الإشاعات التى تكثر فى هذه الظروف . وجاء مبروك فقال أيضا إنه اشترك فى مظاهرة كبيرة بميدان السيدة . . وأنه كان برفقة الجزار وصبيه والخباز وبائع البرتقال . . فكسروا وحطموا مصابيح الغار وحواجز الأشجار ، وتسلحوا بالحجارة والعصى الغليظة والهراوات والسكاكين ، وحكى أن الخنادق قد حفرت هناك . . وإنه حفر معهم خندقاً عمقه متران وعرضه ثلاثة . . .

وأصبح هذا حديث البيت . . ولعله الحديث العام فى كل البيوت . وحضر عبده وطلب العشاء على عجل لأنه خارج ليلا إلى حى الأزهر حيث يعقد اجتماع كبير فى المسجد وسيخطب الخطباء فى الحالة الحاضرة . . .

وإذا الجميع ماعدا الرئيس حنفى التعب الطالب النوم يوافقون عبده ويبدون الرغبة فى مرافقته .

وما جاء موعد الاجتماع حتى كان الأمر قد تفاقم . . . فاذا الأزهر محاصر

وإذا المتظاهرون قد أقاموا المتاريس يتحصنون خلفها .. وإذا هذا الحى والحى المسمى طولون قد أصبحا ميدانا لمواقع دموية . وقيل إن كثيرا من المصريين كشفوا عن صدورهم للمدافع الرشاشة فى بسالة مدهشة .. وقيل إن مصريا سودانيا تقدم فى جرأة إلى مدفع رشاش مصوب جهته فانتزعه بيده وجعل يضرب به أعداءه ضرب العصا ...

ولم يحجم عبده ورفاقه . بل احتالوا حتى اجتازوا مناطق الحصار من حارات ضيقة مجهولة وحضروا الاجتماع ...

***

كان الناظر إلى القاهرة وشوارعها أثناء ذلك الوقت يرى منظرا عجيبا... فى وسط المظاهرات والهتافات كانت ترفرف الأعلام المصرية وقد رسم فيها الهلال يحتضن الصليب ! ذلك أن مصر أدركت فى لحظة أن الهلال والصليب ذراعان فى جسد واحد له قلب واحد « مصر » :

***

اشتدت الحالة حرجا غير أن المدهش أن عبده ومحسن وسليم اندفعوا وانغمسوا فى الثورة على نحو يقلق . ولعل ذنوبه هى الوحيدة التى لاحظت ذلك .. وقد خيل إليها أنها فهمت قليلا سر ذلك : أن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا منذ قليل ساكتين صامتين كأصحاب « بنك » أفلس ... تخنقهم الكآبة والضيق كأنهم فى سجن من نفوسهم لايستطيعون منه خلاصا . هؤلاء الثلاثة ما كادت الثورة تنفجر حتى انفجروا معها . . وإذا هم يروحون

و يغدون منهمكين فيها وفى حوادثها المتجددة المثيرة للحواس ، و إذا هم قد ذهب انقباضهم ووحشتهم وحل محله الاهتمام والكفاح والتحمس . ولعل الصغير محسن كان أظهرهم تأثراً بذلك الحادث التاريخى . . فقد استحال كل ما كان فى قلبه من حب خاب فيه بقسوة إلى عواطف وطنية حارة .. وكل عواطف التضحية التى كان مستعداً لبذلها فى سبيل معبود قلبه إلى عواطف تضحية جريئة من أجل معبود وطنه . هذا ماحدث أيضاً لعبده وسليم بمقدار أقل .

عجباً ! أترى كان لابد من تلك الثورة لتصريف عواطف هؤلاء المنكوبين فى عواطفهم ! ! !

ثم شىء آخر . أتراها هى الأعجوبة التى كان لابد منها كيلا يسقط محسن فى امتحان هذا العام !؟ فى الواقع لم يكن ثمت أمل فى محسن بإجماع أساتذته وهو نفسه ما كان يفكر فى موضوع الامتحان ولا فى شهادة الكفاءة هذه السنة . ولكن هاهى الثورة أغلقت المدارس وألغت الامتحانات وها هو قد نجا من وصمة الفشل بأعجوبة ! غير أن محسن لم يعلق أهمية كبيرة على هذه المسألة ولم ينظر إلى الثورة بهذه العين الخاصة . هى عواطفه القوية التى تحولت إلى وطنية ما كانت تملك كل كيانه وتصرفه عن كل شىء آخر حتى عن سلامته فى تلك الظروف الخطرة .

* * *

لم يكد مصطفى يسافر إلى المحلة الكبرى و يبلغها حتى بر بوعده و بعث

امرأة خاله بصحبة خادمه إلى مصر على أن تمضى نهاراً واحداً تذهب فيه إلى منزل الدكتور حلمى وتخطب سنيه إلى أمها .

وقد تم الاتفاق مبدئياً وعادت امرأة الخال إلى المحلة تزف للخطيب البشرى وتخبره بما فعلت و بما ينبغى له أن يفعل . . . ولقد أعجبتها سنيه فجعلت تصف لمصطفى محاسنها . . . ومصطفى يصغى إليها فى فرح وابتهاج . وأخبرته كذلك أن سنيه هى التى كانت تسهل الأمور ولولاها لما تم شىء بهذه السرعة . والواقع . . ما كادت امرأة الخال تنصرف حتى تنفست سنيه مسرورة سعيدة تعد الأيام على أصابعها . . وتتوقع حضور مصطفى من يوم لآخر لإنهاء الأمر . ولكن وا أسفاه ! . . كان اليوم التالى لسفر الخالة الخاطبة هو اليوم المشهود . . وما انتهى النهار حتى قطعت السكة الحديدية مابين مصر وطنطا والمحلة الكبرى وتعذر على مصطفى السفر إلى القاهرة . . بل تعذر عليه حتى الكتابة إلى سنيه يهدئ من روعها . . . ولا أحد يستطيع وصف قلق مصطفى وضيقه . أفى هذا الوقت الذى يستطيع أن يراها فيه علانية ويكاتبها كما يشاء علناً يقطع الاتصال بينهما . ؟ ! ولكن أسف سنيه كان أشد . . وقلقها وحزنها أروع ... وخطر لها فجأة شبح محسن . وهتف فى أعماق نفسها هاتف :

« أليست هذه العقبة جزاءاً لها على إذلالها محسن المسكين على ذلك النحو . . ! »

* * *

ليس يدرى أحد على التحقيق أكان الثلاثة عبده ومحسن وسليم قد اندمجوا فى سلك جمعية سرية أم ماذا ؟ لقد أصبحت حجرة السطح مستودعا لرزم هائلة مكدسة من المنشورات الثورية . وكانت تقف فى كل مساء بالباب رقم ٣٥ شارع سلامة عربة نقل يجرها حمار عليها صندوق خشبى كبير يصعده السائق بمساعدة مبروك تحت إشراف عبده إلى حجرة السطح و بعد أن يفرغ ما فيه من رزم يعاد إلى العربة . ولا يدرى أحد بالضبط من أين تأتى هذه العربة ولا إلى أين تذهب الرزم ؟ هذا سر كان الثلاثة يفضلون الموت على إفشائه .

***

وفى ذات يوم سرت فى البلد إشاعة : أن التفتيش جار وأن كل مار فى الشارع والطرقات وكل مختلف إلى مقهى أو مشرب معرض للتفتيش فى أى وقت . . ومن يعثر فى جيبه على سلاح أو ورقة مشتبه فيها يساق إلى السجن فى الحال . ولكن . . للأسف جاءت . . جاءت هذه الإشاعة بعد فوات الأوان . ففى تلك الساعة كان محسن وعبده فى قهوة « الشيشة الكبرى » وجيوبهما محشوة بالمنشورات يوزعانها يميناً وشمالا . فلم يشعرا إلا وضابطان انجليزيان اقتحما المكان شاهرين المسدسات وخلفهما جنود مسلحة . . . وفتش عبده ومحسن وأخرجت من جيوبهما المنشورات . . . وفتش بعد ذلك منزلهما وعثر على حجرة السطح ورزمها المكدسة ... هذا يكفى بالطبع للقبض على البيت بأكمله ! وذلك أقل ما يعمل فى ظرف كهذا

قبض حتى على الرئيس حنفى والخادم مبروك . وأُخذ حنفى من سريره وهو يفرك عينيه ويقسم أنه لا يعرف شيئاً . والواقع كان حنفى مظلوماً لأنه لا يدرى بما فى حجرة السطح ... ولكنه دائماً مظلوم وكونه مظلوماً دائماً لا يخليه قط من تحمل نصيبه من المسئولية !!

لم يستثن غير زنوبه ... كل الدلائل تبرئها من التهمة . إنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولا علم لها بشىء . فتركوها وحدها فى البيت . وحدها فقط . وساقوا الباقين جميعاً إلى سجن القلعة ... وقد ظل مبروك يغمز اليوز باشى سليم بيده طول الطريق ويهمس له فى سخط :

— كله منك ياسى سليم ! قعدت تفتش ... لحد بلا قافيه ما فتشونا وعلى رأى المثل ...

ولم يتم ... لأن الجنود المرافقة لهم منعوه من الاسترسال فى الثرثرة ولوحوا له بالبنادق . فوضع يده على فمه وقال مرتجفاً :

— يا جناب العسكر . مفيش لزوم للبنادق . قطعت لسانى خلاص ! العمر مش بعزقه !

الفصل السادس والعشرون

زج بالخمسة فى قاعة واحدة من السجن فناموا ليلتهم من فرط التعب فلما أصبح النهار قام مبروك قبلهم وأخذ يتأمل المكان ويتبين أرجاءه فوجد شباكا عالياً فى ركن كأنه برج بارز فاحتال حتى ارتفع إليه ونظر من بين قضبانه فرآى ساحة فأجال بصره فيها فإذا فى وسطها « عقلة » منصوبة . . وبجانبها « متوازيان » من الخشب لعلهما وضعا لتمرين الضباط والجنود على الألعاب الرياضية ، غير أن مبروك لا يعرف ذلك . فما كاد يرى هذه الأشياء حتى نزل يصيح :

— نصبوا المشنقة . ! !

فما سمعه الرئيس الشرف حنفى حتى فتح عينيه فى الحال وانتفض هلعاً ثم انتصب قائماً على قدميه يقول :

— المشنقة ! هى حصلت المشنقة ! هم رايحين يشنقونا ! ! لا . . دا كلام ماينفعش ! . .

ونظر إلى عبده ومحسن وسليم فإذا هم نيام أو متناومون فى هدوء تام فهزهم صائحاً :

— قوموا . . قوموا يا أولاد ! . . دى داهيتنا تقيله ولا احناش عارفين!

فلم يجبه أحد . . ولم يتحرك أحد . . فقال مغتاظاً :

— يعنى دلوقت النوم حلو ! !

فلم يسمع سوى صدى صوته فوق الأسفلت . . فقال كأنه يخاطب نفسه و يندب حظه :

— آه النهار باين من أوله ! والله عملتوها يا غجر ! . وفضلتم ورايا لحد ماوديتونى معا كم المشنقه ! ! .

ثم سكت قليلا ، وكأنما كلمة مشنقة وهو يلفظها أشعرته أن الموقف قد يكون جداً لا هزل فيه فارتعد :

— لأ . . دى المسألة ما فيهاش هزار . ! .

وصمت قليلا أيضاً يفكر فى هول ما ينتظرهم . وفجأة قفز إلى الرفاق النائمين كأنما لم يطق مجرد التفكير وجعل يقول بصوت التوسل والخوف :

— شوفوا لنا طريقه يا اخواننا . . اعملوا معروف . ! . ينو بكم فى ثواب ! ! قوم ياسليم انت يوزباشى وتفهم فى الموضوع ده ! ما تعرف لناش واد ضابط صاحبك ابن حلال هنا يشوف لنا مخرج . ؟ ! لكن لأ دا انت بحق مرفوت وواقعتك طين : نعمل ايه بس يارب ! عبده . ! ياعبده قوم شوف لنا سلك والا اختراع نهرب به ! ! نايمين برده ! اخص عليكم كده . . وانتم ما تفلحوا إلا فى الهلس ! .

ويئس منهم فتركهم والتفت الى مبروك المطرق المفكر كذلك فى الآخرة ولسان حاله يقول « جالك الموت يا تارك الصلا » فهزه الرئيس حنفى وقال له فى إلحاح :

— انت متأكد يا مبروك انها مشنقه بصحيح ؟

فرفع الخادم رأسه إليه فى حزن وقال :

— آه . . مشنقه بصحيح إمال كده وكده !

فقال حنفى كأنما يخاطب نفسه :

— آهى دى المصيبة اللى بصحيح ! لكن بس يشنقونا من قبل مايجا كمونا . ولو مجلس عسكرى يا مسلمين ! ؟ !

وجنسها ايه المشنقه يا مبروك ؟

فقال مبروك وهو مطرق :

— كويسه .

فسكت الرئيس حنفى وأخذ يقطع القاعة جيئة وذهاباً بخطى عصبية ويفكر ويستعرض ويناقش نفسه ويقول بين آن وآخر « مش معقول ! مش معقول أبداً ! . » وأخيراً وقف والتفت إلى مبروك وطلب اليه أن يصعد ثانية إلى النافذة ويصف له ما يرى فى الخارج بالتفصيل .

ولبى الخادم وأعاد النظر إلى « العقلة » الطويلة المنصوبة ، ثم إلى « المتوازيين » القصير الصغير بجوارها وقال :

— ناصبين بلا قافية مشنقه كبيره وجنبها مشنقه صغيره ! ! .

فردد حنفى فى شىء من الشك والارتياب وقد أحس أن مبروك يهزل:

— ايه هىّ اللى صغيره وكبيره ! مشنقه كبيره ومشنقه صغيره ! ايه الكلام ده ؟ انزل يا شيخ بلاش عبط ؟ !

فألقى مبروك نظرة أخرى على « المتوازيين » الصغير ، ثم قال مقتنعاً ومعللا :

— وحياة دقن النبى كده ! لازم الصغيره دى علشان من غير مؤاخذه سى محسن . .

وعندئذ رنّ فى المكان صوت انفجار ضحك ، وإذا الثلاثة النيام أو المتناومون قد جلسوا القرفصاء كل فى فراشه . . . يضحكون من قول مبروك ومن خوف حنفى ، والتفت سليم إلى محسن وقال له ضاحكا :

— سامع ! . ناصبين لك مشنقه « نونو » على قدك !

فأجاب الفتى باسما :

— أشكرهم على كل حال ، لكن أنا أفضل أنشنق معاكم على المشنقه الكبيره . !

فقال الرئيس حنفى على الفور :

— تبادلنى ! أنا والله راضى بالصغيره ! . .

* * *

كان أول ما فعلته زنوبه بعد القبض على « الشعب » أن التفت فى إزارها وذهبت إلى مكتب التلغراف و بعثت تخبر والد محسن فى دمنهور بما جرى ، وكانت طرق المواصلات قد أصلحت على الأقل خط « مصر اسكندريه » وأصبح الانتقال على طول هذا الخط ممكناً ولكن بقيود وتذاكر شخصية تصدرها المحافظة . ونزل الخبر على والد محسن ووالدته

نزول الصاعقة ، وجعلت والدته تندب مصيبتها من يوم أن وافقت على إرساله إلى مصر بين أعمامه . نعم إن دمنهور ليس بها مدرسة ثانوية ولكن أما كان ينبغى لها أن تفكر فى طريقة أخرى غير استئمان أعمامه ؟ إنما اللوم كله على والده الذى ظن خيراً فى إخوته بالقاهرة ، وحسب أنهم سيحافظون على ابنه وهكذا طفقت تلطم وجهها مشبعة زوجها و إخوته لوماً وتقريعاً وتصيح « هاتوا لى ابنى . هاتوا لى ابنى ! . . » ولم ينتظر والد محسن حتى الصباح بل جهز حقيبته وركب أول قطار استطاع أن يقله إلى القاهرة ، وهناك جعل كالمجنون يقابل أصحاب الأمر والنهى و يسأل و يتوسل على غير جدوى ، وأخيراً خطر له أن يذهب إلى مفتش الرى الإنجليزى الذى يعرفه عله يساعده لدى السلطات العليا ، فكانت فكرة موفقة ، إذ قابله الرجل مقابلة بعثت فيه الأمل واهتم بالأمر غاية الاهتمام لأنه ذكر رؤية الصغير محسن يوم مأدبة الريف و إعجابه به وقد كلمه بالانجليزية فى لطف ، إلا أنه بعد التحرى اتضح له أن المسألة دقيقة لأنها بين أيدى السلطة العسكرية . . ولذلك لا يستطاع حلها دفعة واحدة ، فرجاه والد محسن فى يأس أن يتوسط ولو فى إطلاق سراح محسن فقط على حدة ، ولينتظر الباقون حتى تهدأ الأمور ، فراح المفتش ينظر فى ذلك الشأن ، وفى تلك الساعة تحصل الوالد على إذن بزيارة « الشعب » فى سجن القلعة . فما رآهم ورآى محسن بينهم حتى دهش لمظهرهم الهادىء المرح ، و بعد أن استعلم منهم عن كل ما حدث وقاربت الزيارة الانتهاء . أخذ محسن ناحية وأفهمه أن يتشجع و يصبر

يوماً أو اثنين فقط فإن المساعى مبذولة لإخراجه وحده الآن ، ولم يكد الفتى الصغير يسمع ذلك حتى تراجع أحمر الوجه غضباً وغيظاً وصاح قائلا :

— فاهم انى أرضى أخرج وأعمامى هنا ؟ !

فبغت الوالد قليلا والتفت إلى الباقين فى حيرة وارتباك ، ثم توجه اليهم بالكلام ، مخبراً إياهم عن استحالة إطلاقهم الآن ، وأن كل ما أمكن الحصول عليه هو ربما إطلاق محسن فقط ، وطلب اليهم المساعدة فى إقناع الفتى الصغير نظراً لأن سنه وصحته لا تسمحان له بحياة السجن ، فأقبلوا جميعهم على محسن يطلبون اليه فى إخلاص وفى أصوات حارة صادقة أن يمتثل ويرضى بالخروج لأنه صغير وليس فى سنهم . . و . . و . .

ولكن محسن له أحياناً وفى هذه المسألة على الخصوص . . . عزماً لا يلين . . .

وانتهت الزيارة على ذلك فخرج الوالد وقد خطرت له فكرة ابتسم لها : إنه متى صدر الأمر بالإفراج عن محسن ، فإن رضاءه أو رفضه لا يفيدان شيئاً لأن التنفيذ بقوة الجنود .

منذ تلك الزيارة انقلب حال محسن وأصبح كئيباً يتوقع فى كل لحظة أن يفتح الباب ويجبروه على الانفصال عن رفاقه ، وظل هكذا فى قلق ، وأحياناً فى خجل داخلى كلما ذكر أنه سيفلت بفضل مساعى والده ويترك أعمامه ومبروك بلا معين ، ثم أى لذة للحياة بمفرده فى دمنهور أو فى أى مكان آخر ، وهو الذى يحس الغبطة بمشاركة رفاقه « الشعب » فى كل

تقلبات الظروف والأوقات ، ان الألم نفسه مهما عظم يتضاءل كلما اشتركوا فيه جميعا ويخف حمله كلما حملوه معا ، بل انه أحياناً ينقلب عزاء مثلجاً للصدور ، لذيذاً . ! . فما ذا يريد به أبوه وأمه غير الوحدة والأنانية ؟ ! وجعل فى سره ومن أعماق نفسه يدعو الله أن يخفق مساعى والده . !

وكأن الله استجاب الدعاء الحارّ :

رجع المفتش الانجليزى آسفاً حزينا لأنه بعد جهد حقيق لم يستطع أن يفعل سوى شىء واحد الآن : أن ينقل المسجون الصغير أو هو ومن معه إلى مستشفى السجن حيث المعاملة أرق والمعيشة أحسن والراحة أوفر . .

وقال للوالد الواله :

— اطمئن ! فهم فى مستشفى السجن كأنهم فى فندق . . . أو كأنهم فى منازلهم . هذا خير مكان يمضون فيه وقتهم براحة ، بعيداً عن هياج المدينة حتى يأتى يوم اطلاقهم ، طبعاً المسألة عسيرة الآن ، لأن الحالة فى البلد ما زالت خطيرة . ولكن بعد بضعة أيام أخرى من يدرى ؟ ثق انهم أول من يخرج بمجرد أن تستقر الحالة . انهم فقط محجوزون مؤقتاً . لأجل معلوم . انى لن أتركهم . ثق بذلك . انك تستطيع العودة إلى بلدك مطمئناً مكتفياً بالاعتماد علىّ .

وهدأ والد محسن قليلا لقول المفتش الكريم . . ثم قال متردداً :

— يعنى أسافر وأقول لوالدته . .

فأجابه المفتش بصوت قاطع و بلهجة الواثق المطمئن :

— سافر . . أنا موجود هنا . .

وتم نقل « الشعب » إلى المستشفى . .

وفى نفس اليوم ذهب والد محسن بصحبة المفتش لزيارة محسن ورفاقه فى مقرهم الجديد .

وجعل الوالد يتأمل النظام الجميل حوله والأسرة المصطفة النظيفة والحديقة التى يتنزه فيها من يريد أو من فى دور النقاهة والمكتبة وما تحتويه من كتب حسنة التنسيق وقاعات الانتظار والاستقبال بكراسيها وارائكها الجلد . .

فسر فى نفسه ولاحظه المفتش فوضع كفه على كتفه بلطف وقال له :

— يخيل لى اننا نطمئن على وجودهم هنا أكثر من منزلهم . على الأقل هنا بعيدون عن الاضطرابات والخطر . والمستشفى مسئول عنهم .

اطمأن حامد بك والد محسن تماماً وعزم على العودة إلى دمنهور ليطمئن زوجته القلقة ويخبرها بما يحوط محسن من أمان وراحة وسلام ، وبعد أن شكر المفتش الانجليزى على مروءته غادره ليأخذ حقيبته ويأخذ زنوبه معه إلى دمنهور إذ لا معنى لإقامتها بمفردها وسط هياج القاهرة . . وحزمت زنوبه صرر متاعها . ولكنها لم تشأ أن تسافر قبل رؤية اخواتها ومحسن فى المستشفى . فوافقها حامد بك . وفى الصباح صحبها إليهم فدخلت عليهم وكانوا فى « عنبر » النوم فى أسرة خمسة مصطفة الواحد بجانب الآخر . فوقفت دهشة قليلا للمنظر ! منظرهم لم يتغير وكأنهم فى قاعة النوم

« العمومية » بمنزل شارع سلامه ! !

ثم وقع بصرها على مبروك ممدداً فى سرير بجوار سرير حنفى . وهو يتمطى فى أغطيته وفرشه البيضاء الناصعة النظيفة الجديدة . . . فلم تتمالك زنوبه أن صاحت فى استغراب صيحة خفيفة :

— جاتك نيله يا مبروك ! صبرت ونلت ونمت على آخر الزمن فى سرير بحق وحقيق . . ! !

فنظر إليها مبروك بغير أن يتحرك من رقدته وقال باسماً :

— انت واخده بالك ! !

ثم نهض نصف نهضة فى سريره متكئاً على مرفقه وقال :

— بقا أما أقول لك : أنا خلاص جتتى خدت على نوم السراير وشرفك وشرف أمى ما أنام بعد النهارده على الطرابيزه الخشب إياها ! انتم بلا قافيه استغفلتونى وحسبتوها علىّ سرير !

فى هذه الأثناء كان حامد بك والد محسن فى الردهة الخارجية حيث استوقف طبيباً يعرفه وأخذ يحادثه بعد أن أشار إلى زنوبه على العنبر الذى فيه اخواتها حتى تسبقه إليهم . وانتقلت زنوبه من حديثها مع مبروك إلى التحدث إلى الباقيين . وقد علمت من كلامها مع الرئيس حنفى أنه مسرور بالمستشفى وعلى الأخص بالنوم فى هـذا العنبر .. لا لشىء إلا لأن الهدوء هنا تام شامل . فان « الشعب » لا يجسر على الضجيج « والشوشرة » لأنه يخضع هنا لأوامر رئيس « التمرجية » لا لرئيس « الشرف ! »

وسألها سليم عما جرى بالحى وبالأخص أخبار الحوادث الأخيرة وتأثيرها على . . السكان . . أو . . الجيران . .

وفهمت زنوبه مغزى سؤاله فابتسمت ابتسامة صفراء وقالت متنهدة وبلهجة كلها تلميح :

— عقبال عندك ! كتب كتاب أكيد وأفراح عن قريب ! !

فسكت ولم يحر جوابا .

وتقلب محسن على جنبه الأيسر والتفت إلى ناحية سرير عبده عن يساره يحدثه فى شىء تافه ليخفى انقباضه فى قلبه . . . فأجابه عبده هو الآخر على حديثه التافه بانتباه مصطنع . . وفى عينيه مرارة ممزوجة بالاستياء إلى حد الغضب . . إنه لا يريد أن يتذكر . .

***

نعم أصبح أكيداً عقد زواج مصطفى راجى وسنيه حلمى . فقد حضر مصطفى إلى القاهرة من يوم أن فتح طريق المواصلات الذى كان ينتظره بصبر نافد . وقابل والد سنيه الدكتور احمد حلمى . . . واتفقا على إنجاز العقد والتأهيل يوم تهدأ الحالة بإعادة المنفى العظيم إلى مصر الوالهة . . .

وهكذا . . . قد يتفق يوم خروج محسن ورفاقه من السجن مع يوم زفاف سنيه إلى مصطفى .

***

من غريب المصادفات أن الطبيب الذى استوقفه حامد بك فى الردهة والذى يعرفه مذ كان طبيبا بالأرياف نواحى دمنهور البحيرة كان هو نفس

الطبيب الذى عاد « الشعب » فى منزلهم بشارع سلامه أيام أن أصابتهم كلهم جملة الحمى الاسبانيولى . يومئذ دهش الطبيب لمنظرهم وهم مجتمعون كلهم فى حجرة واحدة صفت فيها الأسرة الواحد تلو الآخر كأنهم فى عنبر ثكنة أو مستشفى .. حتى أنه لم يتمالك «هذا الطبيب» وقتئذ أن صاح بهم:

— لا .. دا مش بيت ... دا مستشفى !

وهو الذى ابتسم مستغربا انضمام مبروك الخادم إليهم على « طرابيزة » الأكل المنقلبة سريرا . وتساءل يومها دهشا عما حدا بهم إلى هذا الحشر فى حجرة واحدة قائلا فى نفسه : «أتراهم فلاحين من أهل الأرياف اعتادوا المبيت هم ومواشيهم فى قاعة واحدة ! ! »

***

كان حامد بك والد محسن فى حديثه مع الطبيب بالردهة قد استفسر منه عن سبب وجوده بالمكان ، فعلم أنه الآن طبيب بالمستشفى . فانتهز الفرصة وأوصاه خيرا بابنه واخوته .

ودخل الطبيب العنبر فوقع نظره على « الشعب » راقدين الواحد تلو الآخر . . . وتبين السحن والوجوه فاذا هو يذكرهم ويذكر « عنبر » منزلهم : فوقف دهشا لحظة ... ثم صاح بهم مبتسما :

— هو انتم ؟ ! ! وبرده هنا كان جنب بعضكم . . . الواحد جنب أخوه ؟ ! !

باريس (جمبتا) سنة ١٩٢٧

مكتب عرب
النوح يوسف قوا السمان
شارع المحالة
مصر
١٩٤٦/٧/٢/١٧٤٩

2271
.255
.313

2271.255.313 v.2
al-Hakim
Awdat al-ruh

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

OCT 6
JUL 18
NOV 2 9 1982 7 76
XXXXXXX
RETURNED DEC 8 '79

JUN 15 2012

Princeton University Library
32101 072538869

الثمن ٢٥ ق